الفصل الثاني

فرادة الفن المعماري اليافعي وأنماطه وعناصره المعمارية

تمهيد:

عندما تقترب من تلك القرى وتغازلك ضلال مُدن يافع ستؤمن أن العمارة بأصالتها ورصانتها أصبحت أنموذجاً من أرقى العمارة في الجزيرة العربية، وهذا مالم تكن تدركه أنت كيمني تجهل ذاتك، غير أن الدكتورة سلمى الدملوجي هي وحدها من أدرك ذلك، فقد خلصت من خلال تخصصها في فن العمارة العربية إلى أن البناء في يافع يكاد يكون الأكثر تطوراً في الجزيرة العربية، كما إنه سبق غيره من حيث الهندسة المعمارية، وأصبحت للهندسة البنائية بيافع محترفوها فهم ذوي خبرة متوارثة امتازت بجودة عالية لا تضاهى، ولازال متمسكاً بخصائصه منذ القدم حتى الآن[١]. ويافع هي المكان الوحيد في العالم الذي يتميز بتفرده الأصيل في فنون العمارة الحجرية الخالصة، فهناك فقط يمكن رؤية ناطحات السحاب الحجرية.

عمارة يافع هي عمارة حضرية (urbon) أي مدينة تضاهي

(١) محمد محمد إبراهيم، مجلة الطيران اليمنية، العدد (٢١)، أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٦م و كتاب الحياة الاجتماعي ومظاهر الحضارة في سرو حمير (يافع) ط١٢٠٠٩م، مركز عبادي للدراسات والنشر صنعاء ص١٥٩.

عمارة مدينة "صنعاء" وعمائر مدن "شبام "وتريم "ووادي "دوعن"، طبعا هي بالنسبة للبناء بالحجر الأكثر تعقيدا وتطورا، إذا إن حضرموت مبانيها من المدر وصنعاء من (الياجور)، والفن المعماري اليافعي فناً هندسياً ومعمارياً تاريخياً، ويمثل إرثاً ثقافياً هاماً، ويتمتع بمزايا فريدة، ومنسجماً مع بيئته في استخدام مواد البناء المحلية وتراكم خبرات البناء[١].

ويعكس البناء اليافعي التقليدي تراكم خبرات قرون عديدة حتى وصل إلى مستواه المتميز في تصميمه وشكله وجماله المعماري الذي يحقق التلاؤم مع البيئة والمناخ ويوفر عوامل الراحة والأمان ويمتاز بالمباني الحجرية عالية الارتفاع بصورة لا مثيل لها في مواقع جبلية نائية خلابة.

لقد ظلت منطقة يافع طوال تاريخها معزولة وبعيدة عن أي نفوذ أو تأثير خارجي، وقد ساعد على ذلك وعورتها الشديدة وطبيعتها الجبلية وشحة مواردها، وبهذا المعنى يمكن اعتبارها محمية عمرانية طبيعية إذا جاز التعبير[٢].

عند ذكر مدينة المخا في ترجمة الشيخ علي بن عمر الشاذلي الولي الشهير قال أبو العباس: بُنيت على قبره قبة معظمة متقنة محكمة، بناها قوم من يافع القبيلة المشهورة من قبائل حمير الأكبر

(١) د/سلمى سمر الدملوجي فن البناء المعماري في يافع،جريدة الاتحاد الإماراتية ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٠م.
(٢) محمد محسن العمري- مجلة تراث.

سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان يقال لهم آل سلام بتشديد اللام[١].

ولا يقتصر البناء في يافع على البيوت بل يشمل المنشات الدينية والمدرجات الزراعية والحواجز المائية والآبار وقنوات الري والنُّوَب والأسوار والمحاجي (المتارس) الحربية وغيرها، ولكل بناء أشكاله وأنماطه ومكوناته المختلفة. تلك هي يافع التاريخ والحضارة والفن المعماري والغنائي ومفردات أخرى، **وسنتناول ذلك وفق التقسيم التالي**:

- ◆ **المبحث الأول:** تعريف الفن المعماري.
- ◆ **المبحث الثاني:** الأنماط والعناصر المعمارية للمنشآت الدينية.
- ◆ **المبحث الثالث:** الأنماط والعناصر المعمارية للبيوت.
- ◆ **المبحث الثالث:** أنماط وعناصر المنشآت العامة الأخرى.

(١) احمد فضل القمدان، هدية الزمن، طبعة جديدة، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ٢٠٠٥م ص٤٣.

المبحث الأول

تعريف العمارة والمعماري

ماهية العمارة:

العمارة: علم وفن وفلسفة واجتماع وقانون وإدارة وتاريخ وسياسة، وأهم من ذلك كله هي علاقات إنسانية، يؤسسها فراغ ذو ثلاثة أبعاد، وترتقي العمارة وتتقدم برجالها وتغوص في أعماق النفس البشرية مستلهمة منها أسمى القيم التي تجسدها في شكل هندسي يأخذ أبعاده من تراث الأمة الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ولا تصبو العمارة لشيء أبعد من تسخير البيئة لصالح معيشة الإنسان، هي أنا وأنت وهم... هي نحن في اجتماع ونحن في شتات، هي الجزء الذي يحتوي الكل، نشكلها نحن أولاً، ثم تعيد هي تشكيلنا ثانياً وأخيراً.

والعمارة: هي فن وعلم تشييد وتصميم المباني، ليغطي بها الإنسان احتياجات مادية كالسكن مثلاً، أو معنوية و ذلك باستخدام مواد وأساليب إنشائية مناسبة، وهي تصميم وإنشاء المباني ونوعيات متعددة منها لزيادة الحماية أو الوقاية، وبتعريف أعم وأشمل فهي تصميم بيئة مضمنة تتفاعل وتتكامل مع البيئة المحيطة وهذا نراه في المدن والتخطيط الحضري، وهندسة المناظر الطبيعية (landscape) بل ويتعدى الأمر إلى تصميم الفراغات الداخلية للديكور الداخلي والأثاث المنزلي، فالعمارة

هي نظام لتصميم أي نوع من الأنظمة، والتاريخ كلمة تعني الزمان والمكان ومن وما على هذه الكرة الأرضية، وتكمن أهمية دراسة التاريخ في كونه ينقل معرفة سابقة بهدف تحقيق ثلاث نقاط أساسية هي:

أولاً: استلهام العبرة، يقول عز من قائل: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٧].

ثانياً: وضوح المرجعية، وتعني استقراء خبرات الأولين، وتحديد المعايير والأسس والظروف التي أنتجت عمارة الأولين، واعتمادها كنقطة انطلاق بعد الصفر، ويمكن توضيح أهميتها بالآتي:

- اعتماد خبرات وتجارب السابقين كنقطة انطلاق بعد مراجعتها وتقييمها علمياً.
- يحدد الأسس والمعايير التي نعتمد عليها في تأسيس أفكارنا وقناعاتنا.
- مدى قدرتنا على تقييم الوقائع والأحداث والمشاهدات.
- تحديد المنهجية العلمية والمنطلقات في البحث والتصميم.

ثالثاً: تحقيق الأهداف، ويعني الحصيلة العلمية والثقافية التي تساعد على تحديد أهدافنا ورؤيتنا للوقائع، وتزيد من قدرتنا الإبداعية وتنظم العلاقة بين الذات والموضوع، بين أفكارنا النظرية

وتطبيقاتها العملية على شكل تصميمات معمارية، أو تخطيطية، أو أي عمل تشكيلي أو أدبي.

رابعاً: مفهوم العمارة، هي إحدى نتائج النشاط الإنساني ويصفها المؤرخون بأنها عمل إنشائي تكويني، وهي منتج بشري يخدم الأنشطة الإنسانية، فهي تعبير وظيفي يوضح تأثير القيم والتقاليد على الحياة اليوم[١]، وقد ظهرت العمارة نتيجة لحاجة الإنسان إلى التكيُّف مع بيئته، وتحقيق الأمان المادي تجاه ظواهر الطبيعة، وإشباع الحاجات النفسية، وبذلك أصبحت العمارة فناً ارتقت حتى أصبحت تعرف عند قدماء اليونان بأنها أم الفنون (Architechture is the mother all of art)؛ لأنها اشتملت على توظيف أغلب أنواع الفنون على أسطحها وفي حيزاتها الداخلية والخارجية.

ولم تقف قيمة العمارة عند الجانب النفعي والفني فقط، فالعمارة إلى جانب إنها توفر فراغات وظيفية لتأدية نشاط محدد، وتبرز جماليات الفنون الإنسانية الأخرى تمثل قيمة عالية، بسبب ما تخلِّفه في نفس المستعمل من متعة فنية في ذاتها وتكوينها[٢]، ويعتبر المعماري فناناً وفيلسوفاً بالدرجة الأولى، فهو من المفترض

(١) عاصم محمد الشاذلي: صفاء محمود عيسى (نحو هوية متميزة للعمارة العصرية في مواجهة تحديات العصر) بحث، مجلة الفن والبيئة، المؤتمر العلمي الخامس، كلية التربية الفنية، ١٩٩٤م.

(٢) علي رفعت: ثلاثية الإبداع المعماري- الإبداع الفني في العمارة- ط١- ١٩٩٧م ص٧- مطابع الأهرام.

أن يعتمد في أي تصميم على مفاهيم وعناصر تتعلق بهدف وفكرة المشروع المطلوب، وهذا يتطلب ثقافةً واسعةً وخيالاً أوسع، لهذا نجد العمارة بحد ذاتها تتسع لتشمل عدة مجالاتٍ مختلفةٍ من نواحي المعرفة والعلوم الإنسانية، ويجب أيضاً الإلمام بنواحٍ ثقافية ومعارف أخرى تبدو بعيدةً عن المجال.

هذا بالنسبة لمتطلبات ومفهوم العمارة، أما مجالات العمل المتاحة فهي مفتوحة بصورة واسعة للغاية، فتبدأ من تصميم المدن والتخطيط العمراني بها، وتصل حتى تصميم أصغر منضدة بالمنازل وقطعة الديكور والأثاث، فالمطلوب من المعماري في مرحلة التصميم وضع تصوُّرٍ كاملٍ ومفصلٍ للمشروع، وربطه بالطبيعة والتقاليد والعادات الموجودة بالمنطقة، فالمطلوب من المعماري إيجاد صيغةٍ مناسبةٍ من التصميم تترجم احتياجات الناس المستخدمين للمكان فيما بعد.

وتغيرت المواقف الفكرية في تعريف العمارة عبر الفترات والحقب الزمنية المختلفة منذ أول تعريف "فيترفيوس" (المنفعة، المتانة، الجمال) والذي يمثل أقدم الأفكار لتعريف العمارة ليومنا هذا.

❁❁❁❁❁

المبحث الثاني

الأنماط والعناصر المعمارية للمنشآت الدينية ودورها التاريخي

تمهيد:

تمثل المنشآت الدينية المقام الأسمى بين العمائر، نظراً للأهمية التي يحتلها المسجد في حياة المسلمين كونه من أهم المنشآت في المدينة الإسلامية وقلبها النابض، ولكون المنشات الدينية مازالت تؤدي وظيفتها التي شيدت من أجلها منذ مئات السنين، وتتمثل المنشآت الدينية في المساجد والمدارس والأضرحة وغيرها. وقد حث النبي ﷺ، على بناء المساجد لما في ذلك من أجر عظيم، قال ﷺ: (من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة)[١].

ومن بديهيات العمل المعماري عند القيام ببناء أي مبنى يجب أولاً اختيار الموقع المناسب لإنشائه وفق معايير وضوابط تتعلق بطبيعة المبنى ووظيفته وبالظروف التي ترافق إنشاءه، أما المسجد فقد جاءت نصوص شرعية تبين الضوابط التي يجب مراعاتها عند اختيار الموقع الخاص ببناء المسجد. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ

(١) صحيح البخاري، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الجيزة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٦٦. حديث رقم (٤٥٠).

زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ [الأعراف: ٣١]، ومن بين ما يجب مراعاته أن يكون جواره طيباً وطاهراً مادياً ومعنوياً، وأن لا تجاوره فضاءاتٌ تنتج عنها أوساخ، ولا بجوار فضاءاتٍ منافية لمبادئ الإسلام، وسنتناول ذلك كالتالي:

- **المطلب الأول**: دور المسجد التاريخي ووظائفه.
- **المطلب الثاني**: العناصر المعمارية للمسجد.
- **المطلب الثالث**: أنماط ومكونات المسجد.
- **المطلب الرابع**: الأنماط والعناصر المعمارية للأضرحة وغيرها.

○ المطلب الأول ○

الدور التاريخي للمسجد

المساجد: بيوت الله في أرضة يؤدِّي فيها المسلمون صلواتهم اليومية المفروضة عليهم، والمسجد عبر التاريخ الإسلامي لم يكن مكانًا للعبادة فحسب بل كان مركزًا للعلم والثقافة، تُعقد فيه حلقات الدرس ويتخرج فيه طلاب العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التّوبَة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البَقَرَة: ١١٤]، وبناء المساجد أَمْرٌ من الله سبحانه وتعالى لجميع المسلمين، وحدد القرآن الكريم الوظيفة الأساسية للمسجد، قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النُّور: ٣٦]. كما رويت عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة في المساجد وفضلها وأحكامها، وأول مسجد بُني في الإسلام هو مسجد قُبَاء، تم تأسيسه يوم حلول الرسول ﷺ دار هجرته، وأصبح المسجد منذ ذلك الوقت مركز ترابط المجتمع والجماعة الإسلامية، وهيكلها المادي الملموس، فلا تكتمل الجماعة إلا بمسجد يربط بين أفرادها بعضهم ببعض، يتلاقون فيه للصلاة وتبادل الرأي، ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم، ويلتقون فيه مع رؤسائهم، ولهذا

كله، أصبح للمسجد ضرورة دينية، وضرورة سياسية، وضرورة اجتماعية، لكل مسلم على حدة، ولجماعة المسلمين جملةً.

دور المساجد في خدمة المجتمع:

المسجد بيت الله وهو أيضًا بيت الجماعة وبيت كل واحد منها على حدة، وهو المكان الوحيد الذي كان وما زال تملكه الجماعة مشتركة، وإن كان الذي بناه الخليفة أو الملك أو الرئيس أو السلطان أو الدولة،وعلى ذلك لم يكن المسجد في يوم من الأيام ملكية خاصة لأفراد أو لفئة دون أخرى، وأوضح مثال على ذلك الدور الذي كان يؤديه المسجد في خدمة المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام، لقد كانت مساجد المسلمين دورًا للقضاء تُعقد فيها مجالس القضاء علنًا بين أفراد الجماعة، وتُعلن أحكام القضاة داخل المسجد، ويُترك للدولة موضوع تنفيذ الأحكام عن طريق أعوان يقفون خارج المسجد تحت تصرف القاضي،كما استُخدمت المساجد معاهد للتعليم، لأن العلم كان دائمًا من اختصاص الجماعة.

وعلى ذلك فلم تقتصر المساجد على وظيفة الصلاة، بل كانت مراكز للحكم والإدارة والدعوة والتشاور، كما كانت محلاً للقضاء والإفتاء والعلم والإعلان وغير ذلك من أمور الدين والدولة.

○ المطلب الثاني ○

العناصر المعمارية للمسجد

للمسجد عناصره المعمارية الخاصة التي بدأت منذ عصور مبكرة تُشَكِّل الملامح الأساسية لعمارة المساجد في العالم الإسلامي، وأصبحت تلك العناصر من أهم مميزات المساجد والتي تتضح بها ذاتية المسجد، وهي بذلك تستحق الدراسة حتى تكتمل لنا معالم تطورها على مر العصور، لاسيما وأن معظم العناصر المعمارية المكونة لعمارة المسجد قد نسبها المستشرقون إلى أصول غير عربية أو إسلامية، وأهم هذه العناصر هي: التخطيط والصحن والمظلات والمنبر والمحراب والمئذنة والمقصورة.

ومن المعروف أنه ما إن دخل النبي صلاة الله وسلامة عليه المدينة عقب الهجرة حتى شرع في بناء المسجد على قطعة الأرض التي اشتراها من غلامين يتيمين في المدينة، ثم خطط المسجد، وأعد مواد البناء من حجارة ولبن وجذوع نخيل وغير ذلك.

١- التخطيط:

يتمشى التخطيط العام للمسجد مع وضوح العقيدة الإسلامية وبساطة أركانها وخلوها تمامًا من الأسرار ومن أي نوع من التعقيدات في طقوس العبادات القديمة السابقة على الإسلام، فلم

تكن بمساجد المسلمين قدس الأقداس (قبَّة الهيكل عند اليهود) كما كان في معابد مصر القديمة، أو منشآت معمارية ضخمة ذات جدران عالية وقاعات داخلية تضاء بالشموع والقناديل، ويقوم على خدمتها كهان أو سدنة لهم هيئات خاصة وملابس مصممة على نحو يراد منه أن يوقع في النفس أبلغ الأثر من الرهبة والقدسية، بل كانت مساجد المسلمين الأولى تخطّط ببساطة شديدة، فهي مساحات من الأرض صغيرة أو كبيرة تنظّف وتسوَّى وتطهر ويُعَيَّن فيها اتجاه القِبلة وتخصص للصلاة، وقد تسور هذه المساحات، وقد تفرش بالجص النظيف أو الحُصر أو البسط، وقد تقام فوقها مبان ضخمة وقد لا تقام، فهي لا تغير من الأمر شيئًا.

كانت البساطة في أداء فرائض الإسلام عاملاً أساسيًا في وضع تخطيط سهل لا تعقيد فيه ولا تكلُّف في توزيع وحداته أو في أسلوب بنائه، وكان المسجد النبوي أول نواة المساجد في جميع الأقطار وفي كافة العصور، ولم يلجأ المسلمون فيه إلى اقتباس أفكار لتخطيط مساجدهم من معابد الوثنيين أو كنائس النصارى أو معابد اليهود كما فعل الرومان من قبل، ولم يطلب الدين الحنيف أكثر من جدران تقام بأية مواد لتحدد محيط المسجد وتحفظ حرمته، من سقيفة أو ظُلة يحتمي بها المسلمون في أثناء صلاتهم، وهو التخطيط الذي بدأ ظهوره في المسجد النبوي بالمدينة المنورة والذي خطه الرسول ﷺ بنفسه، وكان تخطيطه فناء مربع الشكل أحيط بجدران من اللَّبن لم تكن تعلو على قامة رجل، وظلة تقع في الركن الشمالي الغربي يحتمي بها المصلون من حرارة

الشمس، كما كان يجلس فيها الرسول ﷺ ليجتمع بالمسلمين ويتدارس معهم شؤونهم الدينية والدنيوية، وكان يوجد بالضلع الشرقي عدد من الحجرات يقيم فيها الرسول ﷺ مع زوجاته، وكان أسلوب بناء جدران مسجد الرسول ﷺ وظلته وحجرات الإقامة بسيطًا للغاية، فقد استُخدمت جذوع النخيل لرفع الظلة التي صُنعت من سعف النخيل والطوب (اللبن) للجدران.

حين كان النبي ﷺ وأصحابه يضعون أساس المسجد النبوي كانوا في الوقت نفسه يضعون أساس فن العمارة والزخرفة الإسلامية، إذ تطورت عمارة المسجد النبوي الشريف بعد ذلك على أساس التصميم الذي بدأه رسول الله ﷺ، وظل مسجد الرسول نموذجًا احتذاه مشيّدو المساجد في الأقطار الإسلامية الأخرى طوال القرون الأربعة الأولى من الهجرة، وكان الدافع إلى ذلك الحرص والاقتداء بالسنة النبوية الشريفة،وامتثال لأمر الرسول ﷺ حين أمر بعدم زخرفة المساجد وتلوينها، وبين فعل ذلك من أمارات الساعة.

ويخضع التصميم المعماري للمسجد لبعض القواعد الوظيفية والعقائدية، فهو المكان الذي ينتظم فيه المسلمون في صفوف متراصة لأداء فريضة الصلاة، يقول الرسول ﷺ:عن فضل الصف الأول في المساجد، (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا)[١]. وعلى ذلك

(١) صحيح البخاري مرجع سابق ص٨٤،رقم الحديث ٦١٥.

حرص المعماري المسلم أن يراعي في تخطيط المسجد تلك التوجيهات التي أمرنا بها رسولنا الكريم، فقام المعمار المخطط للمساجد بتصميماتها على هيئة مستطيل يكون محوره الرئيسي موازياً لاتجاه امتداد جدار القبلة حتى يتوافق ذلك مع الحديث النبوي الشريف في توافر أكبر عدد من المصلين في الصف الأول، وبالتالي سوف تكمل بقية الصفوف على حسب امتداد الصف الأول. وهذا لا يمكن أن تحصل عليه في تصميم آخر غير المستطيل، حيث لا يمكن أن يعطينا الشكل المخروطي أو الشكل المثمن أو الشكل الدائري أو الشكل المربع المساحة المطلوبة لامتداد الصف الأول بصفوف المصلين. كما وزّعت مداخل المساجد في أماكن محددة بحيث يشكل توزيعها على مخطط المسجد تطابقًا مع المطلب العقائدي المتمثل في عدم المرور أمام المصلي، قال رسول الله ﷺ: (لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيرًا له من أن يمر بين يديه)[1]، وعملاً بهذا الحديث انطلق المعماريون المسلمون يخططون للمداخل المؤدية إلى المسجد وفقًا لنظام معماري لا يسمح بالمرور أمام صفوف المصلين، لذا نجد معظم مداخل المساجد تقع في المؤخرة أو على الجانبين، وعلى هذا نجد العبرة هنا بالأسس العقائدية، وليس بالمراجع التراثية التي يرجع إليها المعماريون عند تخطيط المبنى.

(١) صحيحي البخاري، مرجع سابق، ص ٧٢، رقم الحديث(٥١٠)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي رقم الحديث(٧٨٥).

المهم هو استيفاء المضمون أولاً ثم بعد ذلك يتم البحث عن التشكيل المعماري الذي يخدم هذا المضمون، والتشكيل المعماري هنا يرتبط بطرق الإنشاء ومواد البناء التي ترتبط بدورها بالقدرة الفنية والعلمية لدى المسلمين، لقد احترم المعماريون المسلمون ما جاءت به العقيدة الإسلامية من متطلبات تتعلق بعمارة المساجد لكونها بيوت الله في الأرض، ولذا تعامل معها المعماري وهو ينظر إلى المضمون في التصميم، والمضمون المعماري هنا ليس في تفسيره مجال لذكر ما حرم الله أو ما أحله ولكنه تعامل مع روح الإسلام وتعاليمه،[١] لذلك، كان بحث المعماريين عن المضمون أساس البحث عن الشكل، وليس العكس كما تدعو النظرية المعمارية الغربية ويعمل بها المعماريون الغربيون.

٢- علاقة المسجد بالنسيج العمراني:

أما عن علاقة المسجد بالنسيج العمراني، فقد حدد الرسول الكريم ﷺ مفهوم هذا النسيج في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ "أمر ببنيان المساجد في الدور وأمر بها أن تنظف وتطيّب[٢]. وفي هذا الحديث دلالة على أن المسجد لم يكن بناءً تذكارياً بل هو جزء لا يتجزأ من النسيج العمراني للمدينة الإسلامية، يتكامل معها ويترابط بها عضويًا.

(١) الزركشي/ إعلام الساجد في أحكام المساجد.
(٢) أخرجه أحمد بإسناد جيد.

ولما كان المسجد هو مركز الإشعاع في المجتمع الإسلامي، بل هو محور المدينة، كان على المعماري المسلم أن يتخذ موقع المسجد في قلب التجمع العمراني، تلتف من حوله مراكز الخدمات الإدارية والأمنية والمالية والتعليمية والاجتماعية حتى تكون متصلة روحيًا وسلوكيًا مع تعاليم الإسلام، ولذلك ارتبطت تواريخ المساجد الجامعة في الأمصار الإسلامية بالتاريخ الحضاري والاجتماعي والسياسي للجماعة الإسلامية.

وكان يقال إن الشعر ديوان العرب، وهي حقيقة تؤيدها الأدلة، بينما الحقيقة أيضاً أن المساجد ديوان أمم الإسلام[١] ولهذا كان أول ما يُعنى به المسلمون في كل فتح من فتوحاتهم أن يقيموا مسجداً جامعاً للصلاة، ويحرصون على أن يكون موقع المسجد في وسط المدينة الجديدة، ومجاورًا في نفس الوقت لدار الإمارة أو بيت الخليفة أسوة بما كان في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة.

٣- العناصر المعمارية للمسجد:

لقد تميزت العمارة الإسلامية بعدة عناصر معمارية شكلت على مر العصور عدة طرز ميزتها عن أي عمارة أو طرز أخرى، ولقد استخدم المسلمون هذه العناصر في مبانيهم التي تنوعت ما بين المسجد والمدرسة والضريح والخان والأسواق والحمامات والقصور، وقد احتوت المساجد على كل هذه العناصر جميعها،

(١) الزمكشري/ إعلام الساجد في أحكام المساجد.

بل أن هناك من العناصر المعمارية التي تستخدم في المساجد فقط دون غيرها من المباني، وفيما يلي نذكر أهم تلك العناصر المعمارية التي تتكون منها المساجد في يافع وهي:

أ) العناصر الأساسية للمسجد:

الرواق (بيت الصلاة)، والمحراب، والمنبر .

ب) العناصر الثانوية للمسجد:

المنارة (المئذنة)، والميضأة، والعقود، والقباب، والأعمدة، ويضاف إليها كذلك البرك، والمراحيض (دورات المياه) والتي أضيفت خلال فترات العصور الإسلامية المتلاحقة.

ج) العناصر الخدمية المساعدة:

البئر، والسبيل، والمكتبة، وغيرها .

د) العناصر الفنية والزخرفة:

بأشكالها المختلفة، وهي الزخارف الكتابية، والزخارف النباتية، والزخارف الهندسية.

○ المطلب الثالث ○

أنماط المساجد في يافع ومكوناتها من حيث التخطيط

وهي:

١- المساجد الكبيرة الجامعة.

٢- المساجد المتوسطة والصغيرة (مساجد الفروض).

ويحتوي كل منها على أنماط مختلفة ولها سماتها وخصائصها التي تميزها، وهي كثيرة ومنتشرة في عموم يافع وسنتناول بعض النماذج من الجوامع الكبيرة المقببة والمساجد الصغيرة التاريخية.

١) جامع الهجر لبعوس:

يقع الجامع في مدينة الهجر حاضرة لبعوس، ويتوسط مدينة الهجر أهل عمر، يحده من الجنوب حبيل قعوان وأهل عمر، ويحده من الشمال مدينة الهجر، ومن الشرق منزل المغفور له الشيخ حسين بن عبد الله سالم الضباعي (الهجر)، ومن الغرب بئر المسجد والسبيل، أراضي الوقف الزراعية التابعة للجامع، وبيوت البكري (الهجر)، تم تشييده في القرن الثامن الهجري تقريباً على نفقة الشيخ الفاضل عبد الله بن احمد الضباعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويعد هذا المسجد الجامع أحد أهم المعالم الأثرية البارزة والمتميزة في لبعوس، وهو من حيث التخطيط عبارة عن كتلة معمارية مبنية بالأحجار، فجميع جدرانه مشيّدة من الأحجار

الصلبة بما فيها السقف الذي يتكون من خمسة عشر قبة مشيدة بالحجارة، تغطيها طبقة من القضاض، بما فيها القباب.

يتكون المسجد من بيت الصلاة وعدد من المرافق الأخرى، يحيطه من الخارج سور يمتد من زواياه الغربية، تفتح مداخلة في الضلع الغربي باتجاه مدينة الهجر والضلع الجنوبي من حبيل قعوان باتجاه أهل عمر،تؤدي هذه المداخل إلى أفنيته المكشوفة التي حول بيت الصلاة من الجهة الغربية، و يحيط بها من الخارج السور المشار إليه، وبيت الصلاة مستطيل الشكل ويفتح فيه بابان من الغرب احدهما وسط الجدار الغربي والآخر في مؤخرة الجامع بجانب المئذنة التي تقع في الاتجاه الجنوبي، ويتكون بيت الصلاة من ثمانية أعمدة تتكون من قطع حجرية مربعة الشكل تسمى اسطوانات، في كل صف عمودان، وقد تميزت أعمدة بيت الصلاة بارتفاعاتها العالية، وتحمل تيجانها عقوداً نصف دائرية ترفع السقف المكون من خمسة عشر قبة من الحجر هي سقف الجامع، وتقع في مؤخرة بيت الصلاة مئذنة حلزونية يبلغ ارتفاعها اكثرمن٣٠متراً تقريباً،لها باب إلى بيت الصلاة، وتوجد في جدار بيت الصلاة الشمالي نافذتان صغيرتان إحداهما في منبر الخطيب الذي يقع في الجدار الشمالي على اليمين من المحراب، ونافذة أخرى في الجدار الشمالي القبلي على يسار المحراب، ونافذتان كبيرتان في الجدار الغربي تفتح إلى صحن الجامع (المصلى) أو ما يسمى بـ(الضاحي) الخارجي، حجم النافذة الواحدة متران ارتفاعاً

ومتر ونصف عرضاً تقريباً، إضافة إلى البوابتين اللتين تساعد في عملية الإضاءة والتهوية، وكان يُصعد إلى منبر الخطيب بواسطة ثلاث درجات، وله وَلَجةٌ على يمين الخطيب بالجدار الفاصل بين المنبر والمحراب، والمحراب يتوسط الجدار الشمالي القبلي وهو ذو شكل مجوف.

وللجامع ملحقات تتكون من ثمان غرف تسمى (جوابي) للاستنجاء، وسقف الجوابي يستخدم كمصلى مفتوح يلتصق بمبنى الجامع ويقابله مصلى آخر وغرفة صغيرة يأوي إليها غريب الديار من المتسولين الذين يأتون من خارج يافع يجوبون القرى، وبركة كبيرة للوضوء، ويلتصق بسور فناء الجامع من الخارج حوض ماء، لسقي الحيوانات، يتراوح قطرة بين ثلاثة أمتار طولاً ومترين عرضاً وله لسانٌ تمتد إلى بركة الوضوء تمر تحت الجدار الفاصل بين الحوض وفناء المسجد، وجميعها مكسوة بالقضاض وكان يقع فوق الحوض من الداخل منبر يتكون من خمس درجات وتعلوه تشريفتان، يقابل الداخل إلى فناء المسجد من البوابة الشمالية القبلية، وكان هذا المنبر يستعان به للأذان في صلاة الفجر والعشاء في حالة عدم مقدرة المؤذن على الصعود إلى أعلى المئذنة، أو عند حدوث خلل فني في مكبرات الصوت التي تم تزويد الجامع بها في مطلع الستينيات من القرن العشرين مع مولد كهربائي قوة خمسمائة شمعه.

وكانت إنارة المسجد في الماضي تتم بواسطة مسارج جمع

مسرجة مصنوعة من حجر المرو، وتأخذ هذه المسارج الشكل المربع وقد ظلت حتى نهاية السبعينيات من القرن العشرين تزين الجامع ومعلقة في قباب سقف الجامع، تتدلى من أعلى القبب حتى النصف بواسطة ضفائر أو نسع جلدية، ومن النصف الآخر سلاسل حديدية تربط بين السير الجلدي والمسرجة.

وأثناء تشييد الجامع تم حفر بئر بجانبه خاصة بالجامع على نفقة زوجة الشيخ عبد الله بن أحمد الضباعي، وأثناء حفر البئر صادفت كتل صخرية أعاقت عملية الحفر، ولكي يتم انجاز حفرها بالوقت المحدد تزامناً مع انجاز الجامع يقال بأن هذه الفاضلة قررت تحفيز القائمين على عملية الحفر بمنح كل شخص يرفع وعاء مُلئ بالحجار من البئر أن تملؤه له بحبوب العلس كأجر، والعلس من أجود أنواع القمح، ويتراوح عمق البئر مابين الأربعين إلى الخمسين متر، النصف العلوي منها مطوي بالحجارة أما النصف الأسفل فهو عبارة عن كتلة صخرية، وشيدت قوائمها (الأبكار) ورصفت أحواضها بالحجارة،وربطها بقنوات أرضية مكسوة بالقضاض لتوصيل الماء إلى برك الجامع والأرض الوقفية التابعة للجامع، وللبئر درج (سلم) من الحجارة يوصل النازل إلى سطح الكتلة الصخرية التي في منتصف البئر وتقع فوقها مضخة ارتوازية تم تزويد الجامع بها في مطلع القرن العشرين تقريباً، وتغلق درجة البئر بأبواب.

صورة (٢-١) تعود إلى ١٩٧٣م توضح مبنى جامع الهجر التاريخي مع المئذنة والمحراب قبل ترميم صحن المئذنة

صورة (٢-٢) توضح جامع الهجر التاريخي بعد ترميم صحن المئذنة ويظهر السور الذي يحيطه من الجهة الغربية والبئر وجزء من أراضي الوقف التابعة له

٢) جامع بني بكر الحد:

يعتبر جامع بني بكر أو الجامع القديم حسب ما يطلق عليه الأهالي من ابرز المعالم الأثرية والدينية لمدينة بني بكر، فهو أول مساجد في بني بكر ولا يعرف على وجه التحديد متى تم بناؤه،

بل أن هناك بعض المعمرين يقولون أنه شُيِّد قبل أكثر من خمس مائة سنه تقريباً.

يقع هذا المسجد في أعلى مرتفع في بني بكر يسمى الحرف، يطل على العديد من مناطق يافع وقد تم تشييده بالحجارة، ويتوسط بيت الصلاة أعمدة من الحجارة تسمى سحابيل يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أمتار تقريبا وهي تحمل سقف الجامع المكون من عيدان الخشب تسمى نظار تم وضعها ورصفها فوق أعمدة خشبية طويلة وسميكة تسمى رواكب من شجر العلب طول الواحدة منها أكثر من ثلاثة أمتار تقريباً وزينت جدرانه ببعض الزخارف،وله منبر عبارة عن فتحة في جدار الجامع الشمالي ويقع في الجانب الأيمن للمحراب، وله ثلاث درجات من الحجارة ونافذة إلى الخارج، كما توجد في جدران المسجد عدد من الأولاج لحفظ المصاحف، ومآذنه يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً تقريبا نقشت عليها بعض الزخارف وتوجد في الصحن الخارجي بركة ماء خاصة بالوضوء، ويشاهد الداخل إلى المسجد في أعلى البوابة حجرتين مربعتين عليهما نقوش وكتابات بالخط الحميري، وكانت تقام فيه صلاة الجمعة إلى وقت قريب قبل أن تنقل إلى جامع الروضة الجديد، ويقال بأنه كان يقع عند بابه سوق تباع فيه الخضار والفواكه واللحوم وغيرها، وقد تم ترميمه أخيراً إلّا أن الترميم غيَّر الكثير من معالمه، وكانت توجد فيه عدد من المصاحف بالخط العثماني خطت باليد.

صورة (٢-٣) توضح جانبًا من مبنى جامع بني بكر التاريخي من الخارج

صورة (٢-٤) توضح مئذنة جامع بني بكر

صورة (٢-٥) توضح جانبًا من مبنى جامع بني بكر التاريخي من الداخل وتُشاهد الأعمدة الحجرية التي ترفع سقف الجامع.

٣) مسجد الجيلاني القارة رصد:

يعتبر مسجد الجيلاني واحداً من أبرز المعالم الأثرية في القارة معقل سلاطين يافع بني قاصد، ويقع المسجد في الاتجاه الشمالي من القارة ويتم الدخول إليه من الباب الشرقي لسور المسجد المواجه لميدان الفروسية التدريبي، ويوجد وسط المسجد عمود دائري مبني من الحجر وأعلى العمود صخرة منحوتة على هيئة مربع ذات حجم كبير، ويحمل ذلك العمود أربعة عقود مدببة كل عقد يمثل نصف دائرة، ويزين سقف المسجد من الداخل والخارج أربع قباب، ويعلو جدران المسجد من الداخل شريط كتب فيه عدد من الآيات القرآنية ما تزال بقايا تلك الكتابة ظاهرة رغم الترميمات العشوائية التي طرأت عليه باستخدام الطلاء والإسمنت التي طمست الكتابات والزخارف البارزة التي كانت

دليلا على قيمته الأثرية، وداخل سور المسجد ثلاثة صهاريج خاصة بالماء بأحجام متساوية، وهو من المساجد الصغيرة.

صورة (٢-٦) توضح مبنى مسجد الجيلاني الأثري (القارة)

صورة (٢-٧) صورة أخرى قديمة لمسجد الجيلاني (القارة) وحوله وفوق أسواره رجال القبائل في اليوم التالي لزيارة والي عدن عام ١٩٥٢م

صورة (٢-٨) مسجد الجيلاني (القارة) من الداخل

○ المطلب الرابع ○

أنماط ومكونات الأضرحة[١] وغيرها

ومن أهم العمائر التي اعتُني بتشييدها في العصور الإسلامية المختلفة الأضرحة، حيث كان يدفن فيها أهل الفضل من المسلمين أو أصحاب الجاه من السلاطين والأمراء،

وأول ضريح خطط في الإسلام ضريح الخليفة العباسي المستنصر بالله الذي يعرف بقبة الصليبية، ثم انتشرت بعد ذلك عمارة الأضرحة في العالم الإسلامي وبخاصة في العراق وإيران والهند ومصر، ومن أشهر الأضرحة الإسلامية ضريح إسماعيل الساماني في بخارى، وضريح تيمور لنك في سمرقند، وضريح الإمام البخاري الذي يقع في قرية خاجاه صاحب على بعد ٣٠كم من سمرقند، وضريح تاج محل بالهند، ومقابر الأئمة الزيدية في صنعاء، ومقابر السعديين في مراكش، وأضرحة سلاطين المماليك بالقاهرة. وصارت الأضرحة تلحق بعمائر دينية أخرى كالمدارس والمساجد، ومن أقدم أمثلتها ضريح السلطان نور الدين محمود في سوريا ٥٤١هـ، ١١٤٦م. ثم انتقل هذا التأثير إلى مصر في عصر الأيوبيين وانتشرت انتشاراً واسعاً في عهد سلاطين

(١) كانت تقام عند هذه الأضرحة طقوس جاهلية شركية تخالف بوضوح التوحيد الذي هو ركن الإسلام الأول، وقد تلاشت بعد انتشار العلم والحمد لله (الناشر)

المماليك، حيث أصبحت تلحق بالأضرحة مساجد ومدارس وأسبله وغيرها. من أشهر الأضرحة الإسلامية وأفخمها تاج محل بمدينة أكرا بالهند، وهذا الضريح يمثل قمة ما وصلت إليه فنون العمارة في العصر المغولي بالهند، وقد شيد هذا الضريح السلطان شاه جهان سنة ١٠٤١هـ، ١٦٣١م ليكون ضريحاً لزوجته "ممتاز محل"، ويعتبر تصميمه قمة من ناحية التخطيط المعماري والأسلوب الزخرفي.

وفي يافع توجد العديد من القباب وأضرحة أولياء الله الصالحين التي تنتصب في عموم مناطق يافع، أهمها ضريح السيد المحضار في لبعوس آل عمر عليه قبة، ضريح باعباد في الشبر مكتب الحضارم،ضريح بادجانة في الموسطة، تقام لهم زيارات في عيد الأضحى من كل عام، كما يوجد ضريح عليه قبة ضخمة تسمى قبة الثور، يقع في قرية رباط العبادي لبعوس على الخط الإسفلت الفاصل بين الرباط وكلية التربية يافع وآل بن صلاح، ويربط الفرزة بسوق السلام، وللثور قصة يطول شرحها تم تناولها في كتاب الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة في سرو حمير يافع، وتوجد ثلاث قبب في حبيل الهجر لبعوس، داخل كل قبة مجموعة من القبور المشيدة على شكل هرم مستطيل إحداها تسمى قبة صادق والقبة التي باتجاه جامع الهجر تسمى قبة النعش وفيها مجموعه من النعوش والقبور، والثالثة كذلك توجد فيها مجموعة من القبور، وتوجد أيضا مجموعة قباب في قلعة القارة تحوي قبور سلاطين آل عفيف وغيرها من القباب الأخرى المنتشرة في يافع.

والأضرحة: عبارة عن مساحات مربعة الشكل مبنية بالحجارة ومكسوة جدرانها من الداخل والخارج بالقضاض، وسقوفها عبارة عن كتلة من الحجر هي القبة ترتكز على أربع حنايا ركنية ومدخل يغلق بمصراعين من الخشب السميك، ويتوسط مبنى الضريح من الداخل قبور تضم رفاة الموتى وترتفع عن مستوى سطح الأرض بحوالي ٨٠سم على شكل مصطبة مبنية بالحجارة والقضاض، وتختلف تصاميم الأضرحة بين ضريح وآخر.

صورة (٢-٩) توضح أحد الأضرحة التي تقع في مدينة الهجر/لبعوس ويطلق عليه (قبة صادق)

المبحث الثالث

أنماط البيوت اليافعية وعناصرها المعمارية

تمهيد:

تبدو لك مدن يافع كخيال لا تكاد تلملم أطرافة وأنت تشاهد ناطحات السحاب الحجرية، تلك القصور والحصون السامقة التي تعانق النجوم وهي تتربع قمم الجبال وأعالي الهضاب وضفاف الوديان وكأنها لؤلؤٌ منثور، فتشاهد لوحة معمارية آية في الجمال وغاية في الإبداع والإدهاش، فالنمط المعماري اليافعي تجسيد لجمال الروح وخصوبة الأرض، وتلاحظ قوة الإنسان اليافعي وقدرته على تطويع هذه الطبيعة القاسية واستغلالها وتسخيرها بل وتكييفها بما يلبي متطلباته وحاجياته، ويبقى الإبداع شاهداً على قدرة الإنسان المتجددة ومخاطبة الجمال الروحي الوجداني وجمال الطبيعة التي تتجلى فيها قدرات الخالق عز وجل في تجميل هذا الكون الفسيح الذي أبدع الرحمن في خلقه وتزيينه وتنسيقه وتنظيمه بدقة متناهية تكرماً منه سبحانه وتعالى، ولكي يحيي فينا هذا الجانب وهذه الملكة الفنية وينميها لارتباطها بالروح وتحكمه بالمشاعر والأحاسيس المرهفة وقدرة النفس البشرية[١].

تقول د. سلمى الدملوجي: إن العمارة اليافعية تبعث على

(١) يافع ناطحات السحاب الحجرية- مرجع سابق.

الإبهار والتعجب بقيمها الجمالية التي تتجلى صفاتها في أشكالها وتكوين فضاءاتها، وتقول:لقد كانت مصدر جذب لي وشوق للتقرب منها ومعرفتها، وجاء اهتمامي حرصا على هذه العمارة وأسلوب مدنها الذي بقي شاهداً على حضارة عريقة فيما تلاشت وتداعت أشكال المدن العربية والإسلامية وثقافتها المعبرة عن هويتها، جئت دون أن أعلم أن هذه الثروة العمرانية ما زالت معاصرة، وحين وجدت أهلها ومعلمي بنائها يتفاعلون معها أقدمت على دراستها وتسجيلها من اجل إعطائها درجة الاعتبار والامتياز التي تستحقها في مجال التطور الحضري، كما إن مراعاة الظروف والعادات الاجتماعية والتأقلم معها ومع طبيعة المناخ والموقع، كلها عوامل تم التفاعل مع متطلباتها في العمارة المحلية، كالبناء التقليدي السائد في يافع، لذا يأتي نمط البناء التجاري المستحدث والمنتشر عالميا متخلفا من الناحية الوظيفية والجمالية لو تم مقارنته علميا ومهنيا، هذا كان دافع اهتمامي بالفن المعماري اليمني بسبب وجود مجتمعات قائمة حول عمارة مدن مبدعة، عمارة إبداع استخدمت الفكر الخلاق في التصميم، وامتهنت حرف البناء بحذاقة متأصلة وحكمة متواصلة، وانطباعي أولاً وأخيراً هو التفاؤل الذي ينبع من إن جميع المباني اليافعية الأصيلة بقديمها وحديثها ما زالت قائمة رغم هجر بعضها، هذا ما يؤكد الاستمرارية والثقة بأن الحضارة أو العمران الذي يشكل كيان مدن يافع موجود وهو من حيث النوعية والكمية أقوى من أن يتأثر حاليا بتيار العبث الساري والجاري في البناء الأسمنتي العشوائي

والمتدني أصلاً ونمطاً وشكلا، وهذا صحيح على المستوى العالمي ومعترف به وخاصة عمارة القرن العشرين، التي فقدت ملكة النحت والفن والروح، يتعلق هذا بالربط بين مواد البناء المستخدمة ونمط تصميم الفراغات الداخلية وتواليها في المبنى الكامل وتاريخ تطورها واختلافها، أما ما يسمى نهضة معمارية فهي نهضة إنشائية خالية المضمون في أشكالها المحدودة والتي نرى انتشارها في بناء المساجد والمؤسسات التجارية وبعض البيوت[١]. وللفن المعماري اليافعي مميزاته وأنماطه الخاصة وهي:

- **المطلب الأول**: أنماط البيوت التقليدية.
- **المطلب الثاني**: أنماط البيوت العديل.
- **المطلب الثالث**: أنماط البيوت الحديثة.
- **المطلب الرابع**: العناصر المعمارية والمكونات.
- **المطلب الخامس**: العناصر النقوش والزخرفة.

(١) الدكتورة/ سلمى سمر الدملوجي فن البناء المعماري في يافع، مرجع سابق، أستاذة في جامعة لندن.

○ المطلب الأول ○

نمط البيت التقليدية

١- البيت التقليدي العادي:

مبنى مربع المسقط،يقع على مساحة تقدرب(٣٠×٣٢)فوت يبلغ ارتفاعه من دورين إلى سبعة أدوار، ويتكون كل طابق من غرفتين، إحداهما مستطيلة وتسمى (مفرش[١] والأخرى مربعة تسمى (عُليِّه)[٢] أو مربعة.

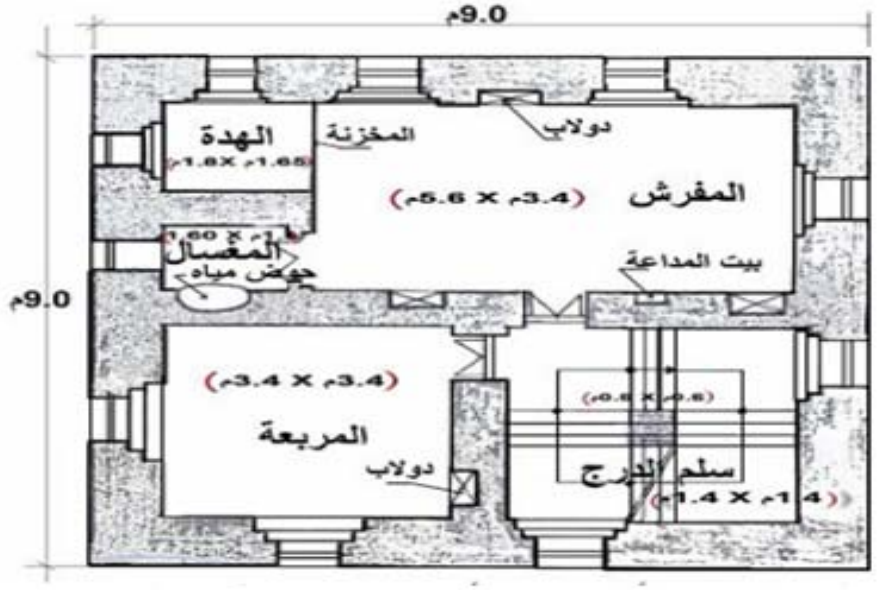

شكل (٢-١٠)مسقط أفقي للدور الأرضي من النمط المربوع البيت التقليدي المكون من مفرش وعُلّية، (المربعة)

---

(١) انظر الوثيقة رقم (٢) في ملحق الوثائق.

(٢) العليَّة: الغرفة وجمعها علالي، القاموس المحيط، الفيروز أبادي، ط٢، ص٩٥٤، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٣م.

وكانت وظيفة غرف الدور الأرضي الأسفل في الماضي سكناً للحيوانات من الماشية وتسمى (أسفال)[١] مفردها سِفِل، وبيت للمطحن (الرحى).

وفي العقود الأخيرة تبدلت وظيفة الدور الأرضي وأصبح دوراً أولاً مكوناً من غرف سكنية مثله مثل بقية الأدوار الأخرى في البيت، وفي سطح الدور الأخير (الجُباء[٢] كانت تقع الدّيمة[٣] (المطبخ).

صورة (٢-١١) توضح بيتًا تقليديًا أثريًا مزخرفًا (القدمة).

(١) انظر الوثيقة رقم (٣) في ملحق الوثائق.
(٢) انظر الوثيقة رقم (٤) في ملحق الوثائق.
(٣) انظر الوثيقة رقم (٥) في ملحق الوثائق.

صورة (٢-١٢) توضح بيتًا تقليديًا متوسط العمر وملحقًا بجانبه ديوان

٢- البيت التقليدي مع التطليعة:

مبنى مربع المسقط، لا يختلف عن البيت العادي التقليدي والذي تم تناوله آنفا هذا في بداية إنشائه، لكنه بعد فترة من الزمن ونتيجة لكبر الأسرة وتكاثر عدد أفرادها، فان رب الأسرة يضطر للتوسع والقيام بتشييد ملحق إضافي يلحقه بواجهة من واجهات البيت الأول ويسمى تطليعة.

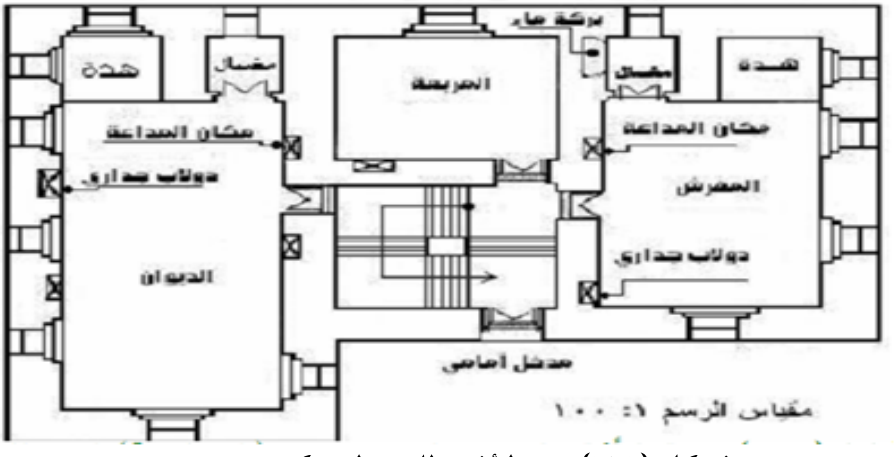

شكل (٢-١٣)مسقط أفقي للدور المتكرر من مبنى البيت التقليدي المضاف إليه تطليعة

صورة (٢-١٤)توضح بيتًا أثريًا مضافًا إليه تطليعتان

٣- بيت عادي صغير:

لا يختلف هو الآخر عن البيت العادي التقليدي من حيث التصميم لكن هذا النوع من البيوت صغيرة في حجمها ومكوناتها وغير منتشرة بشكل كبير مثل سابقاتها، ومنها على سبيل المثال ثلاثة بيوت في مدينة الهجر لبعوس، مثل: بيت محمد سالم بن عامر، وبيت علي أحمد الكيال، والثالث يطلق عليه بيت البدوي، يتكون كل من البيت الأول والثاني من ثلاثة طوابق لا يتجاوز ارتفاع الطابق الواحد عن مترين. ويتكون كل طابق من غرفتين صغيرتين تسمى الواحدة منهما علية[١]، لكن حجمهما ومساحتهما أصغر واقل من علية البيت العادي. ولا يزال البيتان المذكوران قائمين عامرين آهلين بالسكان حتى اليوم.

(١) انظر الوثيقة رقم (٦) في ملحق الوثائق.

والبيت الثالث أصغر من سابقيه، حيث يتكون من طابقين وفي كل طابق غرفة واحدة فقط تسمى (عليَّة)، وما يزال قائم متماسك البنيان حتى اليوم لكنه مهجور منذ زمن بعيد وهذه الثلاثة البيوت جميعها في مدينة الهجر لبعوس، ويقع بيت بن عامر على خط سير طريق السيارات الداخلة إلى الهجر فوق الحقل الزراعي المسمى بـ"تل الهجر" من جهة الغرب ملك المغفور له الشيخ محمد محسن سالم الضباعي، وتحت البيت العالي وبيت آل سالم ملك آل الضباعي من جهة الشرق وبجانب بيت بن خريش من جهة الشمال.

صورة (٢-١٥) توضح بيتًا أثريًا أصغر من التقليدي

○ المطلب الثاني ○

نمط البيت العديل

مبنى مستطيل أو مربع المسقط، ويتكون هذا النمط من القصور من ثلاثة إلى ثمانية طابق، ويقع على مساحة تقدر (٤٥×٤٥) فوتاً تقريباً.

شكل (٢-١٦) مسقط للدور المتكرر من مبنى البيت العديل

ويتكون كل طابق من ثلاث إلى أربع غرف، يسمى اثنان منهم مفارش، والثالث أصغر من المفرش[١] يسمى مسرَّأ[٢] والغرفة الرابعة أصغر من المسرَّأ تسمى عليَّة، وجميع غرف هذا البيت أوسع من غرف البيت التقليدي، ويتوسط غرف كل دور فناء واسع

(١) انظر الوثيقة رقم (٧) في باب الوثائق.
(٢) انظر الوثيقة رقم (٨) في باب الوثائق.

يسمى صرحة[١]، وهناك بعض البيوت العديل القديمة التي كانت تضم مفارشها هدتين (أسرّة نوم) تقع في بطن الجدار، إحداهما تقع في أعلى المفرش بدون حمام والأخرى في الأسفل وبجانبها حمام، وسقف الحمام له فتحة إلى الهِدِة يستخدم كسرير للطفل الرضيع، ويقال بأن مثل هذه البيوت كان يصعد فيها الجمل محملاً إلى الدور الأخير[٢]، وربما كان هناك شكل آخر هو المكعب، مخمس الأركان إلا أنه نادر الآن[٣].

صورة (٢-١٧) توضح بيتًا أثريًا (عديل) يعود للقرن الخامس الهجري تقريباً

(١) انظر الوثيقة رقم (٢) في باب الوثائق.
(٢) الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة مرجع سابق.
(٣) قاسم اليافعي، مرجع سابق.

صورة (٢-١٨) توضح نموذجًا آخر لبيت أثري عديل مع التطليعة ويلاحظ الفاصل بين التطليعة والمبنى الرئيسي الذي يمتد على طول البيت ويعود للقرن السادس الهجري تقريباً (مدينة الهجر)

○ المطلب الثالث ○

أنماط البيوت الحديثة

وللفن المعماري الحديث أيضا مميزاته الخاصة، فخلال العقود الأخيرة دخلت على المعمار اليافعي تطورات وتحديثات شملت التوسع في المساحة وزيادة عدد الغرف، وأصبح الطابق يتكون من خمس إلى ست غرف ومطبخ، وإدخال خدمات المياه والمراحيض والمجاري والكهرباء. تم كل ذلك مع الحفاظ على أسس البناء والشكل الخارجي للمبنى.

أما تصميم الفراغات الداخلية، فقد بدأت تتغير، فالمداميك الداخلية أصبحت من البُلُك، وتم استبدال التفاصيل المعمارية. فأصبح موقع الهِدِة والخَلَّة حمام، أما من حيث الارتفاع فهو لا يختلف عن سابقاته حيث يبلغ ارتفاع البيت الواحد من دورين إلى سبعة ادوار.

صورة (٢-١٩) توضح بيت عديل حديث (الهجر)

وربما تكون منطقة يافع من الاستثناءات القليلة في اليمن التي لم تؤثر فيها الهجرة إطلاقاً فيما يتعلق بالفن المعماري فنجد أنه خلال العشرين السنة الأخيرة تضاعف البناء عشرة أضعاف ما كان عليه في السابق وبنفس النمط، فالناس مازالوا يبنون حتى وإن كانوا في المهجر، حتى وإن لم يسكنوا، إلا أنه يبني حتى وإن كانت هجرته داخلية إلى إحدى المدن الرئيسية داخل البلاد، ولا ندري ما سر هذا التمسك ربما نوع من الوفاء أو نوع من الاعتزاز والفخر، ربما عوامل أخرى روحية ونفسيه ووجدانية، أو لأنها جزء من شخصية الإنسان وانتمائه أو أنه مفعول الجمال الآسر

للطبيعة الساحرة المتمثل بالارتفاع الشاهق والزراعة الأصيلة المتنوعة، أو لأن المنطقة تعتبر نقطة تجمع والتقاء موسمي لأبناء المنطقة بعد غربة وفرقة وبعاد فرضته لقمة العيش، أو إن قساوة الطبيعة انعكست في شخصية الإنسان اليافعي مما ولد عنده نوعاً من التحدي النفسي والفخر المتولد عن انتصار هذا الإنسان على هذه الطبيعة الوعرة الشاهقة، ربما هذا هو التفسير لهذا الهوس عند الناس على البناء في تلك المنطقة للارتباط العميق في الوطن بشكل عام ولمنطقتهم بشكل خاص، وأيضا هناك عوامل ساعدت على استمرارية هذا البناء وهي: وصول الخدمات مثل الطريق والكهرباء والمياه والتلفون وغيرها مما جعل يافع مصيفاً، فنجد المنطقة تزدحم في الصيف بالسيارات الكثيرة مما يجعلك تشعر بأنك لست في منطقة ريفية بعيدة وعرة. ومعظم هذه السيارات لا تحمل لوحات الجمهورية اليمنية بل لوحات من دول الخليج والسعودية.

تقول الدكتورة زينب حزام: " ليافع وجبالها المليئة بالقصص التاريخية وبطولات أهاليها مزايا وإشراقات أخرى أكثر إيفاعاً، ترتبها في ذاكرتك وأنت ترى أجمل المدن والطرق الجبلية في شبق عارم كأنها ردة فعل تنبض بشجن المنازل المسافرة بين الوادي والجبل، وتجد أن الفن المعماري اليافعي بأصالته ورصانته نموذجاً، راقياً لفن العمارة اليمنية، هذه الربوع التي أنجبت العديد من الشعراء والفنانين الكبار[١].

(١) د.زينب حزام- الفن المعماري اليافعي، صحيفة ١٤اكتوبرالعدد رقم: (١٤٢٦٦) الأحد الموافق ١٩ ٢٠٠٨م.

○ المطلب الثالث ○

العناصر المعِمَارية ومكونات البيت اليافعي

إن فن الهندسة المعمارية هو أول الفنون، ذلك لأن الفن هو لغة الأحاسيس التي ينقلها بين الكلمات والألوان والأصوات، والأحجار، والزائر ليافع أول مايدهشه نمط الفن المعماري الفريد والمتميز بخصائصه المحلية اليافعية، ثـَمَّت تناسق عجيب وجميل في شكل وأسلوب وأدوات ووظائف البيت اليافعي حيث ارتبط هذا النمط الفني الهندسي بخصائص المكان ومعطياته الجغرافية الطبيعية، ففي بيئة جبلية شديدة التضاريس وقليلة التربة وضنينة الماء وباردة المناخ ليس من الغريب أن ينشأ أسلوب من أعمال العمارة من جنس الطبيعة ذاتها، ومن ثم فالبيت اليافعي هو شبيه إلى حد كبير بالجبل اليافعي سواء من حيث الرسوخ في الأرض أو من حيث الارتفاع في السماء أو من حيث مواد البناء التي تقدّ قدّاً من صلب الصخور، أو الخُلَب من خالص تراب الأرض النقي مع الماء، أو الخشب من أشجار العِلْب (السدر)، أو من حيث جودة البناء ومتانته الفائقة بحيث يعتبر البيت اليافعي أشبه بقلعة حرب لا منـزل للسكن.

لقد تطور هذا اللون من العمارة اليافعية منذ أقدم العصور وربما منذ أن استوطن الناس فوق قمم الجبال المتباعدة، وإذا كانت الكهوف في بعض الحضارات الجبلية هي السكن الأول

للإنسان ففي يافع قلما نجد آثاراً كهفية وإن وجدت بعض الكهوف الجبلية الصغيرة فمن الصعب التكهن بأنها كانت سكناً[١].

ويمتاز النمط المعماري اليافعي بطوابقه العديدة التي يفصلها عن بعضها حزام مميز، كما يمتاز هذا النمط بتعدد النوافذ، وأيضا وجود زوائد في أعلى المبنى وهي أربع زوائد، كل واحدة منها بشكل هرم وموزعة على أركان المبنى الأربعة وبأطوال متساوية ومهمتها كبيرة وهامة، وتتمثل في وقاية المبنى من الصواعق أثناء الأمطار بحيث أنها تعمل على تشتيت الصواعق وتوزيعها على الأربعة الأركان، وإذا كانت تلك الزوائد غير متساوية فان المبنى سيتأثر بالصواعق ويحدث فيه انشقاق.

كما يمتاز النمط اليافعي بتعدد الأحجار فيه، فنجد البعض يبنى من الأحجار البرتقالية والبعض من الأحجار الصفراء، وبنفس تميز البيوت تتميز المنارات في المساجد وأيضاً النُّوَب المبنية من الأحجار وبارتفاعات متفاوتة تشبه من حيث الشكل قلعة الشطرنج[٢].

ونحن هنا سنبذل الجهد لوضع بعض المقاربات الأولية التي من شأنها وضع الملامح العامة للتعرف على هذا النمط الفني الثقافي الذي ينطوي على منظومة متواشجة من الأنساق والوظائف

(١) قاسم عابد اليافعي، الثقافية: مرجع سابق.
(٢) فؤاد القاضي يافع . . فلسفة الفن المعماري بين الأصالة والمعاصرة - صحيفة ٢٦ سبتمبر.

والدلالات، وسنتناول العناصر والمكونات للبيت اليافعي على النحو التالي:

أولا: العناصر الأساسية للبيت.

ثانيا: مكونات ووظائف البيت.

ثالثا: الزخارف والنقوش.

أولا: العناصر الأساسية للبيت

١- المدخل أو الباب:

الباب ظاهرة معمارية عرفتها شعوب الأرض بلا استثناء، وهو في الأصل اختراع أمني دفاعي، بديل عن الصخرة الكبيرة التي كان يسد بها الإنسان البدائي كهفه أو مغارته حيث يحتمي، ويؤدي الباب دوراً رئيسياً ومؤثراً في واجهة المبنى فهو من عناصره التشكيلية الأساسية، حيث يتم اختياره ليتلاءم وطراز المبنى ونمطه المعماري وحجمه تبعاً لتقسيمات العمارة في أوجهها الحربية أو الدينية أو المدنية، وكثيراً ما تكون الأبواب مرتدة إلى الداخل ومحاطة بإطارات مزخرفة.

يتعمد المعماري رفع المدخل عن مستوى الأرض (عتبة عالية) حتى يوفر قدراً من الهيبة البصرية والإحساس بعلو المكانة، ومنهم من ينصب الأعمدة العالية على جانبيه، وسقفاً تتدلى منه المقرنصات، أو قباباً، ما يمنح الباب السمو والرفعة، ومنهم من يلجأ إلى التشكيلات بكتل الأحجار المعشقة والمتداخلة أو المنحوتة لتحيط بالباب أو بزخرفة واجهاتها بالكتابات، علاوة

على التفنن في مقابضها ومفصلاتها ومزاليجها.

وللباب دلالة على وجاهة أو ثراء أو منعة، فيعرف البيت من بابه إن كان فخماً أم متواضعاً، وكانت تصنع الأبواب من أجود وأثمن أنواع الخشب، وللأبواب سحرها الخاص ولها خصوصية في الثقافة العربية، ولدى كل الحضارات، ومنذ فترة باتت صرعة محببة تزداد يوما إثر يوم ومحط اهتمام الفنانين والمصممين والحرفيين المحدثين، وهذا يؤكد على ضرورة الحرص والاهتمام بجمال الباب الذي من شأنه رفع مستوى جمال البيت، وحرص العارفين بضرورة صناعة الباب من خشب ثمين قوي يتحمل طبيعة المناخ وظروف الطقس من حرارة ورطوبة وجفاف.

وكان الباب العربي قديما يصفح بالمعادن كالنحاس ويطلى بالذهب أو الفضة أو الاثنين معا بهدف إضفاء الهيبة للمكان، ويعهد عادة لصنع الأبواب إلى الحرفي الماهر المتمرس، ومعلوم تميز الفن العربي بالإتقان والمبالغة في الإجادة وحب التنميق والزخرفة فنجد أن الحرفيين يلجؤون إلى ابتكار طرق جديدة للتجميع والتعشيق بعد قطع الأخشاب على هيئة أشكال هندسية من مربعات ومخمسات ومسدسات ومثمنات تجمع وتعشق مع بعضها عن طريق لسان بارز، وتوضع هذه الأجزاء على سطح الأخشاب الأقل ثمناً فيكون مجموعها شكلا زخرفيا جميلا، وأحيانا كثيرة يتعهد الباب حفّار يقوم بتجميل أسطح الأبواب بطريقة الحفر البارز أو الغائر أو الاثنين معاً، ويكون للباب عادة مفصلات يُعتمد عليها أثناء حركته، يجب أن تتناسب وحجم الباب وثقله لضمان سهولة

الغلق والفتح.

وكان الناس يضربون الباب بالعصي أو السلاح الذي يحملونه للإفصاح عن هويتهم. ثم جاءت فكرة تثبيت مقبض يدوي وسط الباب يحدث صوتاً لينبه سكان البيت عندما يطرق، تنوعت أشكال هذه المطارق[١].

العناصر الفنية للمداخل:

المدخل أول البيت وأجمله: البيوت تقرأ من مداخلها شقة كانت أم قصراً أو مبنىً تجارياً أو سكنياً، فالمدخل هو عنوان المنزل وصورة إيحائية عن ساكنه، فيه نتلمس ذوق صاحب الدار وشخصيته وثقافته، كما أنه يشكل نقطة انطلاق ضرورية إلى باقي أرجاء المنزل، أيا يكن حجم المدخل فهو يبقى المساحة الأصغر في المنزل، لكنه الأكثر أهمية من الناحيتين العملية والعمالية، ويستحسن إحداث تغيير جذري في تصميم المدخل من خلال رسم الخطوط الأساسية بغية خلق بعض الحيوية والديناميكية في أجوائه، وتعتبر المساحة الخالية إطلاقه ضرورية كون المدخل هو المقدمة والممر إلى باقي أرجاء المنزل، مع الحرص على معالجة السقف والجدران والأرضية بدقة متناهية، واستعمال مواد راقية تبعث شعوراً بحسن الضيافة والدفء والانتماء.

إن الشعور بالدهشة في هذه المساحة الصغيرة محبذ، ويمكن

(١) يحيى سويلم، الباب العربي قناع الوجاهة ومرآة العمارة، جريدة الجريدة العدد ٤٣، ٢١/٠٧/٢٠٠٧م.

ترجمتها عملياً باختيار عناصر غير متوقعة تثير التساؤل والاستغراب مع التنبيه إلى عدم تحجيم وتهميش دور هذه المساحة، وضرورة انسجامها التام مع الجو العام للمنزل من حيث اختيار المواد والألوان والطراز، كما بات العديد من المهندسين يلجؤون إلى تصميم المدخل بحيث تكون مساحة مفتوحة إلى باقي أرجاء المنزل، وذلك عن طريق إلغاء الجدران والأبواب واستبدالها بحواجز بصرية من مواد وأشكال مختلفة وغير متوقعة، وهذا التغيير أصبح مقبولاً لدى الغالبية نتيجة التحول الحاصل في عقلية الإنسان المعاصر ونمط معيشته.

"والملفت للنظر أن البيوت في يافع من النادر أن تكون مداخلها (السِدة)[١] من الجهة الشمالية، وتشير الدراسات إن هذا ربما ينم عن تخوف الأهالي من سقعة الرياح القادمة من الشمال، بل الأرجح إن الرياح المشبَّعة ببخار الماء شمالية وهبوبها من الشمال إلى الجنوب يُحدث "سافياً" من الماء أثناء هطول الأمطار في فصل الصيف"[٢]، والباب الرئيس غالبا ما كان يأخذ الاتجاه الجنوبي أو الشرقي، وعلى ضوء تحديد اتجاه المدخل الرئيس تتحدد اتجاهات النوافذ للغرف الرئيسية (المفارش) والعلالي والدرج.

وأبواب المداخل الرئيسية للبيوت (السدة) معمولة من خشب

(١) انظر الوثيقة رقم (٢) في ملحق الوثائق.
(٢) محمد إبراهيم، مجلة اليمنية، مرجع سابق.

العِلْب(السدر) وتنحت في واجهتها أشكال ورسوم وكتابات، وكذا الحال بقفلها والمفتاح حيث إن القفل والذي يسمى "غلقة" يكون على شكل صليب، ويتم الإغلاق بدفع العمود الأفقي بفتحة في العمود الرأسي وعندما يصل العمود الأفقي إلى نهاية حركته تسقط سنون خشبية من العمود الرأسي داخل فتحات في العمود الأفقي تمنعه من حركة الفتح إلا عبر المفتاح الخاص بها، والمفتاح يحتوي على أسنان ثابتة تتطابق مع فتحات الغلقة ولا يمكن فتحها إلا بمفتاحها، وهذا منتهى الأمن والأمان [١].

وكان لبعض البيوت القديمة مدخلان أو (سدَّتان) تسمى الأخرى غير الرئيسية مخلفة وتعني خلافا للعادة أو كونها تقع في الجانب الخلفي للبيت، ومنذ فترة السبعينيات من القرن الفارط، تم استحداث (سدة) أخرى أو مدخل يقع بجانب المدخل الرئيسي، لكنه يؤدي إلى مفرش الدور الأول (الأرضي) وفي كل دور من أدوار البيوت التقليدية المكون من غرفتين يوجد بابان، والبيت العديل من ثلاثة إلى أربعة أبواب.

وكانت السدد الرئيسية للبيوت القديمة تصنع من أخشاب شجرة العلب (السدر) المعروف بصلابته وقوة تحمله إلى جانب أنه لا يتآكل مثل خشب الأثل وغيره، والسدة ذات سمك كبير معززة (بموسكين) مواسك و(معلج) كبير من الداخل لإحكام الإغلاق، والمعلج عبارة عن عود سميك الحجم مدور الشكل وطوله لا يقل

(١) العمري، مجلة تراث، مرجع سابق.

عن مترين، يؤسس له معلم البناء فتحتين في قوائم الباب من الداخل بين الظهارة والبطانة بحيث يتم إدخال هذا العود (المعلج) في إحدى الفتحات بكامل طوله بين الظهارة والبطانة، وأثناء الإغلاق يتم سحبه إلى أن يصل إلى الفتحة التي وضعت له في القائم المقابل، وتسمح بدخول ربع متر تقريباً من طرف العود فيها ووضعه يتوسط الباب الخشبي من الداخل، ومن الخارج الألقة (المغلقة) وهي ذات نطف متحركة أثناء الفتح والإغلاق، وفكرتها منتشرة في الوطن العربي، وتتكون سدة الباب الرئيسي من "درفتين" بالنسبة لأبواب المفارش والعلا لي، وبقية الملحقات تتكون من درفتين ومواسك داخلية ومغلقة خارجية، ولكن جميعها بحجم أصغر وسمك أقل من سدة الباب الرئيسي.

٢- العقود:

تستخدم العقود في البناء اليافعي بكثرة، فهي تبنى فوق المدخل الرئيسي للبيت وفي الدرج وفوق نوافذ الغرف، وتبنى من أحجار مربعة بتموضعها على شكل نصف دائرة متلاحمة، وليس للزخرفة فقط بل إن لها وظائف هامة لضمان الترابط والمتانة والتوازن، وتُظهر عملية بناء العقود مهارة معلمي البناء التي تجمع بين ضمان المتانة والزخرفة.

صورة (٢-٢٠) توضح عقد مدخل البيت

صورة (٢-٢١) توضح مدخل البيوت الأثرية (السدة) مع بعض الزخارف

صورة (٢-٢٢) نموذجان لمداخل البيوت الأثرية (السدد)

٣- الدرج (السُّلّم):

السُّلّم، أو ا لدّرج يبدأ بناءها من باب "السِّدَة"، أي المدخل الرئيسي للبيت وتنهض مع الأدوار على شكل مربع إلى الدور الأخير، وكل ثلاث درج أو أربع يتلوها صرحه فسيحة تتوسط أبواب غرف البيت، وفي كل طابق نافذتين لإضاءة الدرج، ومن مدخل البيت يتم الولوج إلى مساحة تتوسط غرف الدور الأرضي تسمى صرحة الدرج، ويتم وسط هذه الصرحة حفر مدفن للحبوب في صخرة صماء، وفي أحدا زواياها تنحت حفرة وسط صخرة ملساء لدهس ودق الزنجبيل والبهارات، وتسمى مدقه أو موحسة.

٤- النوافذ:

يصل عدد النوافذ في الواجهة الواحدة للبيت القديم من خمس إلى عشر نوافذ حسب سعة المبنى. والشيء الملفت أنه يتم وضع وتركيب النوافذ الخشبية أثناء البناء ومن ثم يتم بناء الجدران والأعمدة الحجرية فوقها، ولكن هذا البناء لا يحول دون تغيير واستبدال هذه النوافذ لاحقاً إذا تطلب الأمر، وتوضع النوافذ في البيت وفق نسق محدد، والنافذة من الداخل واسعة وأشبه بعدسة الكاميرا في تدرجها بحيث تضمن الإضاءة اللازمة طوال النهار وتوزيعها في أرجاء الغرفة، وانسياب حركة الهواء، مع صغر حجم النافذة من الخارج لضمان الحماية من الطقس البارد شتاءً، والحار صيفاً، وتوجد عادة أربع نوافذ في كل مفرش، واحدة في الواجهة الأمامية، ونافذتان في الجانب، والرابعة في "هدة" النوم، وثلاث نوافذ في العُليَّة إحداها في الهدة، ونافذتان في كل طابق للدرج

وتسمى النافذة في يافع "لهجٌ"[١].

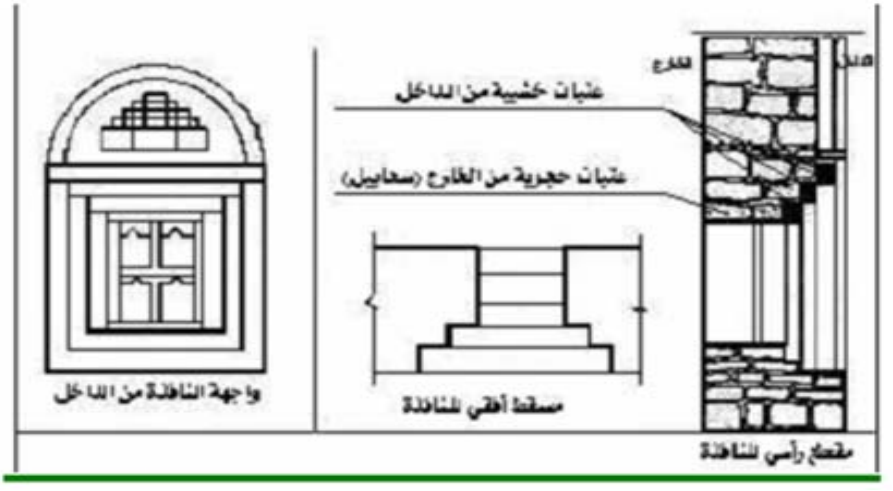

شكل (٢-٢٣) يوضح تفاصيل النافذة في المبنى التقليدي

صورة (٢-٢٤) توضح نافذة بيت أثري ذي أربعة أبراج ويشاهد بعض الزخارف

صورة (٢-٢٥) توضح نافذة بيت أثري ذي برج واحد مع نقوش زخرفية ويعلوها من الجانب الأيمن زخرفة حجرية على شكل نجمة داوود

(١) مفردة الهج وتعني النافذة - وفي اعتقادي بان مفردة الهج هي تحوير للمفردة الفصيحة (الوهج) وتعني الضوء المشرق. الذي يتسلل إلى الداخل من خلال النافذة والله اعلم.

صورة (٢-٢٦) توضح نافذة البيت التقليدي من الداخل مع الزخارف وهي على شكل عدسة الكاميرا في تدرجها

٥- الهدة:

تعد الهدة من العناصر المعمارية المهمة التي تميز وتفرد بها البيت اليافعي دون غيرة على مستوى اليمن بل والعالم، وهي من الخصوصيات التي اختص بها البناء في يافع، ومن أهم العناصر التي يجب أن تحتويها غرف البيت، والهدة عبارة عن فتحة في جدار الغرفة ترتفع عن أرضية الغرفة متر ونصف تقريباً، بطول مترين وعرض مترين، وهي بديل لسرير النوم، وتقع تحتها خَلَّة عبارة عن غرفة صغيرة لخزن الأشياء المهمة.

صورة (٢-٢٧) توضح تفاصيل بيت أثري منهار من الداخل

ثانياً: مكونات البيت ووظائفها:

إن تراث أي عمارة ما إنما هو أشكال إنشائية ووظيفية ناطقة تعبر بأوضح صوره عما كانت تحتاجه ثقافة من الثقافات، وما كان يراود أهلها من أحلام، والبيت اليافعي يتميز عن غيره من البيوت الأخرى في تقسيم عناصره الوظيفية، حيث أن:

الدور الأرضي كان في الماضي لا يستخدم لأغراض سكنية، إذ يحتوى على المدخل الرئيسي الذي يؤدي إلى مساحة تسمى (الصرحة)، أما بقية المساحة فيه مخصصة كمخازن للحطب والأعلاف وأيضا لمبيت المواشي وتسمى (أسفال)، كما يوجد بالدور الأرضي ممر صغير يؤدي إلى السلم حيث يبدأ تكوين واستدارة السلم ويؤدى إلى الأدوار العليا، ويبنى (سلم الدرج) على طول ارتفاع المنزل من الحجر، وتبلغ مساحته في المسقط ١,٥ × ١,٢٥ متر، يرتفع الطابق بمعدل ٣-٤ أمتار تقريبا وهذا هو المعدل الثابت لارتفاع كل طابق عن الآخر ثم يسقف بالأخشاب و(الصَّلا)ليقوم عليها الطابق الثاني، والدور الأرضي تنعدم فيه النوافذ إلا من كوى صغيرة.

يتكون البيت اليافعي من طابقين إلى سبعة طوابق، وكل طابق من طوابق البيت العادي يتكون من غرفتين: مفرش وعلية، والبيت العديل يتكون الطابق من أربع غرف: مفرشان و مسرا وعلية، والبعض ثلاث غرف: مفرشان ومسرا، وتفاصيلها كما يلي:

١- المفرش:

عبارة عن شقة كاملة فأرضيته تستخدم مجلساً لاستقبال الضيوف، وفي إحدى زواياه تقع غرفة صغيرة مترين في مترين بارتفاع متر ونصف تقريباً، تسمى (خَلَّة) تستخدم لخزن الأشياء المهمة ولها باب محكم الإغلاق، وسقف هذه (الخلة) يستخدم كسرير للنوم تسمى (هِدَة) تفرش بالفرشان والألحفة والبطانيات و(الخطاط) وتسدل أطراف هذه المفروشات على واجهتها بشكل طبقات زخرفية من الأسفل إلى الأعلى بحيث لا تبقى سوى فتحة صغيرة لدخول الزوجين إليها، ويتم حجب هذه الفتحة بستارة خفيفة، وبجانب الهدة والخلة يقع الحمام.

صورة (٢-٢٨) توضح الهدة وهي مرصوفة بالبطانيات والألحفة، وتعلوها الستارة والحمام إلى يمين الصورة تغطي بابه الستارة. الصورة في عام ١٩٧٣م.

وتوجد عادة أربع نوافذ في كل مفرش، واحدة في الواجهة الأمامية، ونافذتان في الجانب، والرابعة في (هدة) النوم، وتوجد عدد من الفتحات في جدران المفرش لها وظائف عديدة ومهمة، إحدى هذه الفتحات وأكبرها لها أرفف من الأحجار المستطيلة تسمى (الصَّلا) وباب خشبي من فردتين وهي لحفظ ملابس الزوجين، وفتحة أخرى عميقة نوعاً ما تغلق بباب تسمى (مخزَّنَة) لخزن الأشياء الثمينة، وفتحة أخرى مستطيلة إلى الأعلى مزخرفة بالعقود توضع فيها المداعة تسمى بيت المداعة، وعدد آخر من الفتحات الصغيرة تنتشر في جدران المفرش وفوق النوافذ تسمى (الولاج) جمع وَلَجة[1]، تولج فيها الأشياء ذات الاستخدام الدائم، وتمتد على طول جدران المفرش معاليق من أخشاب السدر المتينة والسميكة نوعاً ما، وطول المعلاق الواحد نصف متر تقريباً يدخل نصف منه في الجدار والنصف الآخر بارز وعلى ارتفاع بحيث لا يستطيع الأطفال الوصول إليه، وتعلق فيها الأسلحة و(الأمساب) جمع مسب.

وكل زوجين من أفراد العائلة يستقلان بمفرش من مفارش البيت،ومكوناته تلبي كل ما كان يحتاج إليه الزوجان وأولادهما، والحمامات(المطاهير) في الغرف كانت تستخدم للاستحمام والوضوء فقط، وبقية الاحتياجات كانت توجد لها مواقع خاصة

(١) الولاج: جمع وُلُجه، الولاج: الكثير الولوج وهو خرَّاج ولَّاج ولَّج فلان ماله توليجاً، الوُلَجة: الكثير الولوج يقال: هو وُلجة خُرجة، الوَلَج: شبه كهوف تستتر فيها المارّة من مطر وغيره والواحد وَلَجة. المعتمد، ص٧٩٧.

خارج البيت أو في مكان مخصص لذلك في سقف المنزل يسمى (السَّقاطة) لإسقاطها ما فيها إلى خارج الدار[١].

٢- العُلِيَّة:

يضم أحد جدرانها (الهِدَة) وتحتها حمام صغير وتوجد في جدرانها فتحات ومعاليق مثل المفرش ولكنها أقل.

٣- المُسرّأ:

المسرا له نفس وظائف سابقته وفي أحيانا كثيرة يستخدم كمخزن لخزن المواد الغذائية ومتطلبات الأسرة.

٤-الدَّيمة (المطبخ):

تقع الديمة (المطبخ) في (الجُبَا) وهو سطح البيت وتضم الصُعْد(الأثافي) الذي كان بمثابة الشولة آلة الطبخ الحديثة وهو عبارة عن مبنى من الحجار مطلي بالخلب (الطين) ومرتفع عن أرضية الديمة، وتتوسطه حَجَرتان متساويتان متوازيتان تسمى (مصعدة) توضع فوقهما أدوات الطبخ ووسط الحجَرتين يتم وضع الحطب، وفي إحدى زوايا (الديمة) يتم تثبيت الموفى، وفي سقف (الدّيمة) توجد فتحة أو فتحتان لسحب الدخان المتصاعد من الصعد والموفى وإخراجه إلى الفضاء، تسمى مقاطير جمع مقطور،ومغسلة أرضية صغيرة لغسل الأواني وتنظيفها تقع في الزاوية الثالثة للدّيمة،ولها فتحة إلى الخارج تسمى (مسريب) لتسريب الماء[٢].

---

(١) العمري، مجلة تراث، مرجع سابق.

(٢) انظر الوثيقة رقم (٩) في باب الوثائق.

صورة (٢-٢٩) توضح بيتًا أثريًا ويلاحظ في سقف ديمته فتحتان صغيرتان على شكل دائري (المقاطير) والتي تقوم بسحب الدخان ويشار إليهما بالسهم.

المساريب (مخارج تصريف المياه):

ولتصريف مياه الأمطار ومياه المراحيض كان يتم تركيب قنوات تسريب خشبية مجوفة تسمى المساريب، ومفردها مسريب، وكانت تثبّت إلى جدار المبنى من خارجه، وأحيانا كان يتم بناؤها من الحجارة، وفي بعض البيوت كان يتم بناء (ساحية) أي مجرى من النورة على طول الجدار من الخارج بحيث يتم ضمان تدفق المياه من المراحيض عبر الفتحات الصغيرة إلى الساحية (القناة الجدارية) التي توصلها عبر الجدار إلى (المباسل) خارج البيوت دون إن تتسرب إلى داخل البيت، والمبسل حوض مكشوف تتجمع فيه مياه الصرف الصحي حيث تجففه الشمس تماما وهو تصحيف (لمبزل).

وكانت المراحيض في البيوت تأخذ اتجاها محدداً وعادة

باتجاه الشمال وكان يخلو الاتجاه من النوافذ لأن الرياح في الشتاء تأتي غالبا من اتجاه الشمال سعياً لتجنب الروائح وحفظا للصحة العامة، ويعتبر تحديد اتجاهات المبنى تقليداً راسخاً له أسبابه وتقاليده ولكن أهمها كانت تلك المرتبطة بالطقس البارد شتاء والحار صيفاً[١].

صورة(٢-٣٠) توضح الساحية (مخرّجات الماء)

❁❁❁❁❁

(١) محمد محسن العمري- مرجع سابق.

○ المطلب الخامس ○

النقوش والزخرفة

إن العمارة التقليدية العربيّة عموماً، واليمنيّة خصوصاً مدرسة مهمة في عمق الترابط بين الإنسان والعمارة، ورغم أن بعضهم يذهب إلى ربط أشكال الزخارف والنقوش في العمارة اليمنيّة بشكل أحرف الكتابة اليمنيّة القديمة (المسند) وطريقة تعبيرها إلا أن العين تلتقط بسهولة التشابه العفويّ بين الزخارف التي تطرّز واجهات المباني اليمنية ورسوم الزي اليمني التقليدي... فوق كل ما صنعته يد إنسان في ذلك البلد المنقوش على الحجر، وكأن اليمنيّ يسقط النقوش المحفورة في أعماقه نحتاً على حجارة البيوت وعلى خشب الأبواب والنوافذ والصناديق وعلى فضّة الأساور والمكاحل والأحزمة والخناجر... يودعها كلها بعض روحه... ولأن اهتمام العمارة العربيّة عموماً واليمنيّة خصوصاً بالجمال لم يتعارض أو يقلّ عن حرصها على تأدية الوظيفة، فإن جمال الزخارف في واجهات الأبنية اليمنية وتفرّدها قد استخدم كلغة تعبير لا كعلامة ترف كما ألفناها في باقي مناطق العالم.

ولكثير من هذه النقوش والفتحات المختلفة المقاسات والأشكال وظيفة مهمّة تؤدّيها، كالتهويّة أو التكييف أو الإضاءة أو حماية الخصوصية، بل وأحياناً الناحية الدفاعية، وحتّى اختيار طلاء الزخارف وأطراف النوافذ بالكلس الأبيض (النورة) لم يكن

لجماليته فحسب، بل لطرد الحشرات وعكس بعض أشعة الشمس الحارقة أيضاً[١].

ومن خلال زيارة خاطفة لثلاث مديريات من مديريات يافع الثمان.. في التعرف على ما تختزنه ومحاولة لإزاحة اللثام عن جمال يافع الخلاب وسالب العقول، وكذا لنفض الغبار عن آثارها وتاريخها المطمور تعرفنا عن قرب على الجمال الطبيعي ليافع، خاصة فن العمارة اليافعية التي وضع أساسها وتصميمها وتقسيماتها ومكوناتها وطقوس تشييدها ابن يافع الأول، وظلت محتفظة بنمطها ودستور نظامها حتى اليوم، وفي عموم مديرياتها الثمان عدا بعض التغييرات الطفيفة التي طرأت حديثا في جزئيات الشكل الخارجي للبناية اليافعية، كنوع من المواكبة للتطور العمراني العصري. لكنها رغم كل ذلك يظل الفن المعماري اليافعي، والذي رغم أن عدد كبير منها يعود عمرها لأكثر من ستمائة عام، إلا أنه لا يزال يحتفظ بعناصره الرئيسية وجوهر طابعه المتميز والفريد حتى اليوم، والتي يتطلب قبل وأثناء تشييده قديماً، القيام بطقوس ومراسيم معينة، وإتباع أسس وقواعد ثابتة لا يمكن الخروج عنها حتى في البناء الحديث.. فلكل جزء فيها حكمة عند اليافعي، لقوامها وطولها الفارع حكمة، وللأشكال والرسومات التي تزين به قوامها من الخارج كعروس يوم زفافها قصة ورواية،

(١) المعمارية ريم عبد الغني/ اليمن يسقط النقوش في أعماقه نحتا على حجارة البيوت / حوار مع صحيفة الوطن الجمعة ٢ابريل ٢٠١٠م الوطن صحيفة الكترونية يمنية يومية مستقلة.

ولحزامها الذهبي (العلسة) المرصع بحجر المرو على شكل أوراق سعف النخيل غاية ومقصد، فيلف خصرها وطوابقها السبعة والتي تنتهي ببناء دائري يتخلل أركانه الأربعة أحجار طويلة (شواهد) تسمى تشريفات البناء، ليجعل الأمر وكأنك أمام عروس صنعانية يوم زفافها إلى عريسها حين تضع القاوق (الطوق) أو التاج لتنصيب الملوك والنبلاء[١].

ولعل أكثر ما يعطي البناء الحجري في يافع منظره الرائع وجماله وجاذبيته هو تناغمه وانسجامه مع بيئته ومحيطه، والشعر الشعبي اليافعي كثيراً ما استخدم تعبير "الشوامخ" مشيرا إلى البيوت أو الجبال العالية أو الشخصيات ذات المواقف والمكانة الرفيعة، ويتم اختيار حجارة البناء بعناية لضمان أن تكون ألوانها رمادية مائلة إلى الزرقة. وتنتصب البيوت في بطون الجبال أو على قممها بأدوارها العالية كأبراج أو حصون تنشد السمو والرفعة والمنعة.

وتقل الزخرفة والنقوش عادة في واجهات المباني، وربما يعود السبب إلى الرغبة في عدم خدش ما يعطيه البناء الحجري من تناغم مع بيئته، كما أن صلابة الحجارة قد حالت دون نحتها بسهولة ويسر، ومع ذلك لا تخلو معظم المباني القديمة والحديثة من نقوش وزخارف في واجهاتها الخارجية، ولكن هذه الزخارف

(١) منصور الغدره - طراز المعمار اليافعي في فن العمارة اليمنية-٢٦ -سبتمبر العدد -١٤١٢: الخميس ١١ سبتمبر ٢٠٠٨م. زيارة مجموعة من الصحفيين.

لا تمثل ترفاً زائداً بل إن لها بالإضافة إلى ذلك وظائف محددة، وقيمتها الوظيفية تسبق جماليتها ولكنهما في الأخير تتكيفان وتنسجمان، وهذا ما تظهره بجلاء العقود فوق الأبواب الرئيسية والسحابيل (الأحجار المستطيلة الشكل) فوق النوافذ، وحجار المرو الأبيض الصغيرة، والأشكال الهندسية المختلفة داخل جسم العقد فوق الباب الرئيسي.

أولاً: النقوش والزخارف الخارجية:

تعطي للبيت اليافعي خصوصيته الخطوطُ البيضاء التي ينتهي بها كل دور.

صورة (٢-٣١) توضح بيتين متوسطي العمر وتُشاهد الخطوط البيضاء التي تفصل بين الطوابق

وكذا التشاريف الأربع التي تبنى فوق الأركان في السطوح على شكل هرم، وهذه التشاريف لا توضع عادةً إلا فوق البيوت

التي يتجاوز ارتفاعها أربعة أدوار، وكذا فوق المساجد ويسمى البيت ذو التشاريف بالبيت المشرَّف تمييزاً له عن البيت ذي الثلاثة أدوار أو أقل.

صورة (٢-٣٢) توضح بيتين قيد الإنشاء تعلو زواياهما (التشاريف)

ويلاحظ كثرة الزخرفة في جدران البيوت القديمة من القرن التاسع عشر وما قبله، ولكنها اختفت في البيوت التي بنيت في منتصف القرن العشرين، وسبب اختفائها يعود إلى ظهور البنادق الحديثة وانتشار الحروب القبلية. حيث كانت مواقع الزخرفة في جدران المبنى أهدافاً سهلة ونقاط ضعف يستهدفها الخصوم، فتؤثر على سلامة المبنى وترابطه.

صورة (٢-٣٣) توضح قصرًا أثريًا (عديل) مزخرفًا

صورة (٢-٣٤) توضح قصرًا أثريًا (عديل) مزخرفًا
بأحجار بارزة يعود إلى القرن السادس الهجري

صورة ٢-٣٥) توضح واجهة بيت أثري تقليدي مزخرف

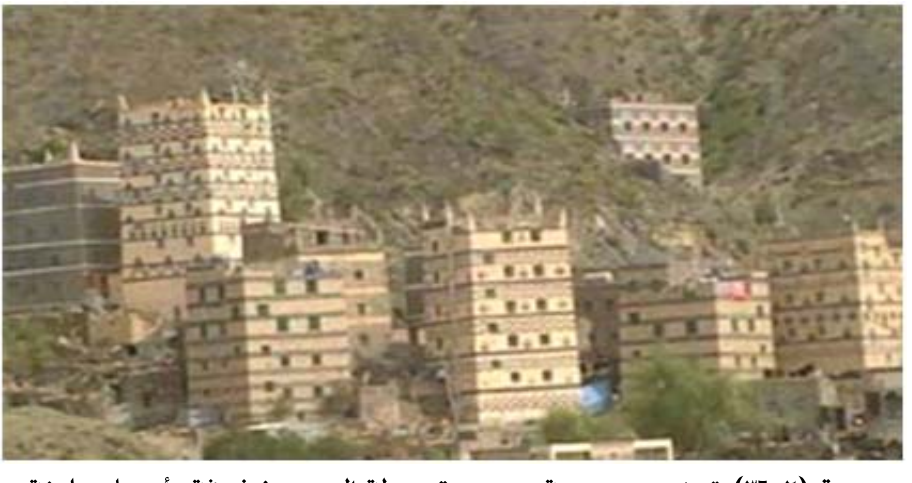

صورة (٢-٣٦) توضح مجموعة بيوت متوسطة العمر مزخرفة بأحجار ملونة.

ويظهر الاهتمام بالزخرفة في نوافذ البيت المنحوت فيها أشكال هندسية جمالية مختلفة وتشمل فتحاتها للإضاءة والتهوية، والملفت للنظر أن النوافذ تطلى من الخارج باللون الأزرق، ولا تفسير لذلك إلا لانسجام لون الحجارة وللحماية من عوامل التعرية وربما كانت للأزرق أسراره التي لا نعرفها، فالسماء

زرقاء والبحر أزرق[١].

صورة (٢-٣٧) توضح نوافذ بيوت حديثة من الخارج مطلية باللون الأزرق

وهيئة المنـزل وهيبته تثير في إعجابك شهوة الأسئلة عن الروعة المضفية عليها على الرغم من غياب الزخرفة الموجودة في العمارة الحضرمية والصنعانية، وهو الأمر الذي عللته بعض الدراسات المذكورة بصلابة أحجار الجرانيت ذات اللون الرصاصي حالكة السواد وهي الأحجار الأساسية التي تبنى منها منازل يافع، حيث نجد واجهاتها تُزيَّن بأشكال بسيطة هي سر روعتها، هذه الأشكال يتم رسمها من خلال وضعية الأحجار التي تكون بارزة للخارج أو العكس، أو استخدام أحجار (المرو) لتعطي في البيوت القديمة بقعة معينة على شكل نجمة داود!!! أوالصليب!!! أو خط طولي يحاصر المنـزل على شكل (علسة).

(١) العمري، مجلة تراث، مرجع سابق.

صورة (٢-٣٨) التقطت في ستينات القرن الماضي
لبيت أثري تظهر على واجهته العلسة وزخارف أخرى

صورة (٢-٣٩) توضح بيتًا أثريًا
مزخرفًا بحجارة المرو البيضاء

صورة (٢-٤٠) توضح بيتًا أثريًا مزخرفا
بحجارة المرو البيضاء مع الخطوط
البيضاء الفاصلة بين الطوابق وتعلوه
التشاريف يعود بناؤه إلى ١٣٦٨هـ
وتاريخه منحوت على مدخل الباب

كما يوجد فوق (السدة) الباب "الرئيسي للبيت القديم" عقد نصف دائري يسمى الثريا[١].

صورة (٢-٤١) توضح العقد نصف الدائري (الثريا) لبيت أثري

ثانيا: النقوش والزخارف الداخلية

الزَّخْرَفة الداخلية، وتُسمَّى أيضًا التصميم الداخلي أو الديكور هي فنٌّ تصميم الغرف والفراغات الداخلية لتتصف بالجاذبية والقدرة على توفير الراحة وتحقيق الغايات التي أنشئت من أجلها. إضافة إلى الإضاءة والطلاء وزينات الجدران والعديد من الأشياء الأخرى تضفي البُسُط والستائر والأثاث الكثير على المساحة

(١) محمد محمد إبراهيم، مجلة اليمنية، مرجع سابق.

الداخلية، ويتم اختيار المكونات اللازمة في دقة تامة لتلائم الأغراض والنسق العام المطلوب.

والزخرفة الداخلية من أقدم الفنون إذ درج الناس قديمًا على تزيين الأماكن التي تؤويهم، فزيّن المصريون القدماء حجراتهم بتصاوير جدارية ضخمة، وزخرف الرومان أرضياتهم بالفسيفساء زاهية الألوان، ونشأت منذ ذلك الحين طُرُزٌ زخرفية عديدة، بعضها تميز بالبساطة والرقة، واتسم بعضها بالأبهة والمغالاة.

ويشتمل كل فراغ داخلي على مقومات أساسية ومؤثرة للتصميم الداخلي، وأهم هذه المقومات هي: الطراز والقالب أو الهيئة واللون والضـــوء والمقياس التناسبي والوحدة النمطية الزخرفية والملمس، ويمكن توظيف كل منها بطرق متنوعة ينجم عنها مختلف التأثيرات، على سبيل المثال قد يترك استعمال الوحدات النمطية الرأسية الخطوط في ورق الحائط إحساسًا بأنَّ السقف أكثر ارتفاعاً مما لو كان تكراراً رتيباً لوحدة زخرفية نباتية مثلاً.

"الزخرفة والنقوش في يافع تتوزع أشكالها وفنونها داخل البيوت ابتداءً من عقود الدرج (السلم) وحتى داخل الغرف، وتكثر بصفة خاصة داخل المفارش، وأبرزها العقود فوق النوافذ تتوسطها فتحات في الجدار وأشكال هندسية تتشكل من الحجارة على هيئة مثلثات وصلبان ونجوم، ونفس الأشكال تجدها في بيت المداعة، وأبواب الخلال الكبيرة والمخازن الصغيرة المنحوتة برسوم

وأشكال جميلة ومتقنة تدل على مهنية وحرفية عاليتين[١].

صورة (٢-٤٢) توضح الزخارف الداخلية للبيت الأثري وتتمثل في نموذجين مختلفين لبيت المداعة وبجانب أحدهما على اليمين باب المخزنة الخشبي والمطلي ببرواز أحمر ومربعات زرقاء وهي لخزن الأشياء الثمينة وتحتها ولجة

وهناك الأقواس الدائرية والعقود البيضاوية وبالذات داخل المجلس الرئيسي في البيت، كما توجد "الولج" ومفردها ولجة، وهي عبارة عن رفوف متعددة الأحجام والاتساع لكافة اللوازم والأغراض مثل ولجة "للموكف" ولجة "للغازة" أو الفانوس القديم آنذاك، وبيت المداعة.

(١) العمري، مجلة تراث، مرجع سابق.

صورة (٢-٤٣) توضح العقود فوق النوافذ
والولج ويشاهد جزء من الهدة مشار إليها بسهم

صورة (٢-٤٤) توضح بعض الزخارف الداخلية لبيت أثري

صورة (٢-٤٥) صورتان لبيت أثري توضح الولاج وبعض النقوش ويظهر ضمن الزخارف علامة الصليب

صورة (٢-٤٦) بيت أثري توضح نموذجًا زخرفي أخر لبيت المداعة

صورة (٢-٤٧) توضح خشب سقف بيت أثري مزخرف بنقوش وألوان متعددة

صورة (٢-٤٨) توضح الزخرفة النحتية في خشب سقف ديوان حديث من الداخل

وفي الوقت الحاضر حل محلها "الكباتات" والقمريات فوق بعض النوافذ حليت بالنقوش وألوان الزجاج المموج[١].

(١) محمد محمد إبراهيم، مجلة اليمنية، مرجع سابق.

صورة (٢-٤٩) توضح العقود والقمريات مع زخارف داخلية حديثة فوق الكبانات

صورة (٢-٥٠) توضح العقود والقمريات فوق النوافذ

وهناك بعض النقوش التي كانت تطلى بها جدران الغرف بألوان متعددة مثل اللون الأحمر والأبيض والأزرق والأخضر وغيره من الألوان المختلفة ويسمى (الرَّنج) وبدأ استعماله من أربعينيات القرن العشرين، وقبل هذه الفترة كانت تستخدم البيله وهي عبارة عن أصباغ[١].

(١) الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة في سرو حمير يافع، مرجع سابق.

صورة (٢-٥١) تعود للعام ١٩٧٦م ويظهر فيها المؤلف وفوق رأسه تظهر بعض النقوش لمفرش بيت أثر كما تبين الصورة باب خشب صغيرة للمخزنة الخاصة بالأشياء الثمينة والباب مطلي باللونين الأبيض والبُنّي بشكل مثلثات

صورة (٢-٥٢ و٥٣) توضح النقوش والزخرفة في مفرش بيت متوسط العمر. الصور التقطت في العام ١٩٧٦م

المبحث الثالث

أنماط ومكونات المنشآت العامة الأخرى

تمهيد:

هناك أشكال هندسية أخرى للبناء، وفن العمارة في يافع يشمل أنواعاً مختلفة من المباني غير السكنية والدينية والتي تبنى لأغراض مختلفة وبأساليب بناء تختلف إلى حدٍ ما عن تلك التي يتم بناء البيوت بها، ومنها الآبار والحواجز المائية وبرك الماء ذات البناء الأسطواني والحواجز المائية الصغيرة،وقنوات الري، والنُّوَب والطرقات، والمدرجات الزراعية والأوصار مفردها وصَر والمواجل ومفردها ماجل[١]. وكذا بناء المحاجي (المتارس الدفاعية) والمدارس، والمستشفيات والمرافق العامة الخدمية المختلفة .**وسنتناول ذلك كالتالي**:

- **المطلب الأول**: أنماط المنشآت الحربية.
- **المطلب الثاني**: المنشآت الزراعية والمائية.
- **المطلب الثالث**: المنشآت العلمية والخدمية.

---

(١) الماجل اسم فاعل. و:كل ماء في أصل جبل أو واد - المعتمد، ص ٦٣٨- مرجع سابق.

○ المطلب الأول ○

أنماط المنشآت الحربية ومكوناتها

النمط الأول: بناء وتشييد النُّوبْ

ومفردها نوبة، وتتكون النوبة من أربعة إلى خمسة طابق، وكل طابق مكون من غرفة صغيرة تأخذ الشكل الدائري، وسقف كل غرفة له فتحة دائرية تقع بالقرب من الجدار الذي يحمل درج الصعود، وتعتبر هذه الفتحة عبارة عن باب الدخول والولوج إلى كل طابق وتغلق هذه البوابة أو الفتحة بحجر دائرية توضع فوقها مجموعة من الصخور بحيث لا يستطيع رفها من قبل شخص آخر من الأسفل، وللنوبة باب رئيس يقع في الطابق الأرضي، وكانت توجد مجموعة من هذه الأنواع الأثرية من القلاع الحربية الصغيرة، تنتشر بشكل لافت في عموم يافع حتى فترة السبعينيات من القرن العشرين، وكانت لا تخلو قرية من قرى يافع إلا ووجدت فيها هذه الأبراج (النُّوَب)، تنتصب وتتوزع على سلسلة قمم جبال يافع وتلالها وبالقرب من الحصون والمساحات الزراعية بشكل منظم ودقيق للغاية ومتصلة ببعضها،ولا يغيب أو يختفي برج عن الآخر وتمتد عبر اتصال الواحدة بالأخرى حتى تصل إلى منطقة الحد المحادّة للمناطق الشمالية المجاورة ليافع والمتمثلة في مديرية الزاهر التابعة لمحافظة البيضاء،وقد استخدمت تلك القلاع للحراسة والدفاع، ويعود تاريخ هذه القلاع إلى القرون الوسطى

تقريباً، ويقال أنها كانت تمثل وسيلة اتصال وهمزة وصل بين قبائل يافع عن طريق إشعال النيران في قمة البرج الذي شاهد تحرك العدو فيراه أقرب برج مقابل له فيشعل النار في قمة برجه، وهكذا يتواصل إشعال النيران من برج إلى آخر حتى يصل إلى آخر نقطة مراقبة، وكان لكل حدث إشارة ضوئية معينة، وهي عبارة عن نداء عاجل يراد به إعلان حالة الطوارئ والاستنفار والاستعداد والتأهب لمواجهة الخطر القادم.

وتختلف تسمية تلك الأبراج بين منطقة وأخرى، ففي بعض المناطق يطلق عليها بـ(الصومعة) وفي بعض المناطق نوبة والتسمية مشتقة من كلمة مناوبة، وقد تعددت وتميزت هذه المباني بأشكالها الاسطوانية الدائرية وتتميز بعدم وجود نوافذ إلا من كوى صغيرة وأكاليل حربية لفوهات البنادق توزعت في جميع الاتجاهات، وشكلها الدائري يسهل عملية الاستطلاع والاستكشاف، وهذه ميزة تدل على خبرة وحنكة، والدرج (المصعد) صمم من داخل النوبة، بترك أحجار بارزة في جدار المبنى من الداخل ومتدرجة من أسفل النوبة إلى أعلاها تؤدي وظيفة السلم، وعملية الصعود إليها ليس بالأمر الهين إذ يتطلب من الصاعد الإمساك أثناء الصعود، لكن مع الأسف فقد تم هدم معظم هذه الأبراج في يافع لبعوس من قبل القيادة المحلية للجبهة القومية بعد الاستقلال مباشرة ولم يبق منها حالياً إلا القليل وفي مناطق متفرقة.

صورة (٢-٥٤) توضح مبني النوبة ويظهر خلفها جبل ثمر أعلى قمة في يافع

صورة (٢-٥٥) نموذج آخر للنوبة لم يبق منها إلا طابقان تقريبا

النمط الثاني: الأكوات:

الأكوات: جمع كوت، وهي ذات شكل مربع ولها نفس وظيفة النوبة ويستخدم كسكن، لكن أعداده قليلة ويبلغ ارتفاعها من أربعة إلى خمسة طابق، لا يختلف طابق عن آخر،وكل طابق يتكون من غرفة واحدة فقط. لكن غرف الكوت أكبر وأوسع من غرف النوبة، وله درجة حلزونية شبيهة بدرجة المئذنة.

صورة (٢-٥٦) توضح مبني الكوت

النمط الثالث: المحاجي

المحاجي تعني المتاريس وهي عبارة عن أسوار وجدران دفاعية شيدت بالحجارة وتتكون من جدارين: ظهارة وبطانة، وتستخدم متارس دفاعية أثناء الحروب والمعارك وتتوزع في هذه

الجدران فتحات صغيرة تتسع لفوهات البنادق، ويطلق على المواقع التي تقام عليها هذه الجدران (المحاجي)، على سبيل المثال هناك قرية تحمل نفس الاسم تقع تحت جبل العر في مديرية الحد تسمى المحاجي، حيث كان هذا الموقع بالفعل محاجي دفاعية تم تشييدها أثناء محاولة الغزو العثماني وحروب يافع مع الأئمة القاسمين.

صورة (٢-٥٧) في ١٩٦١م تبين مبني المحجي (المترس) من الداخل

صورة (٢-٥٨) توضح قرية المحاجي - الحد

○ المطلب الثاني ○

المدرجات الزراعية والمنشآت المائية

١- بناء المدرجات الزراعية في يافع، إتقان علمي وإبداع فني:

استطاع اليمانيون أن يشقوا طريقهم في أعمار الجبال بالمدرجات الزراعية وكوّنوا الحواجز لصد التربة ومنعها من الانجراف ولتكون صالحة للزراعة ليعيشوا ويعتاشوا منها، فالجبال عامل من عوامل تساقط الأمطار التصاعدية، لهذا فإن تربتها ذهب لا بد من استغلالها زراعياً، هكذا فكر اليمانيون واستصلحوا تلك الجبال عن طريق بناء المدرجات، وكان عملهم جماعياً ولم يكن فردياً، لأن العمل الفردي لا يحقق الهدف المرجو بأسرع وقت ممكن.

وبحكمة بالغة واحتراف فني وهندسي استطاع رجال يافع القدامى ومازال كبار السن من الأهالي يشكلون جبالهم ويرسمون مدرجاتها الزراعية التي وفرت قوتهم وقوت أجدادهم، والمدرجات الزراعية في جبال يافع، تمثل مزارع المواطنين ولها مكانة في نفوسهم، كونها تمثل شريان الحياة حيث توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل، وها هم كبار السن الذين يمثلون آخر أجيال رسامي المدرجات، يعاودون ترتيبها حين انهيار أجزاء منها بسبب الأمطار التي تشهدها المنطق، أن هذه المدرجات بنيت من الحجر بحكمة وفن خاص، بدليل تحملها أعتا الظروف البيئية

والمناخية، رغم ما يصيبها بين حياناً وآخر من انهيارات مع ما تحمل تربتها من أطنان الماء في المواسم الماطرة.

إن فن بناء المدرجات وكيفية صيانتها وما نلاحظه من قبل كبار السن فن خاص لا يتم إتقانه بسهولة، والدليل أن البعض يستأجر عمالة لبناء بعض الانهيارات في المدرجات، ولكن سرعان ما تنهار مجدداً خلال أشهر، بينما تبقى تلك المدرجات التي صنعها كبار السن، لكونهم متمرسين ولهم طرقهم الخاصة التي أثبتت فعلا قوتها ومتانتها لعشرات السنين، إن طريقة بناء المدرجات من خلال متابعة كبار السن ليست بالأمر السهل والهين،خاصة وأنهم لا يبنون بأي حجر؛ بل يتم اختيار حجارة خاصة بعناية فائقة، وتوضع في أماكن محددة ومدروسة، وهذا سر تماسك تلك المدرجات وروعتها التي نتمنى أن تستمر ويتم الحفاظ عليها

والزائر لمناطق يافع يستهويه منظر مدرجاتها الزراعية التي تزدان بها جبال سرو حمير (يافع) وتزيدها تألقاً وروعة، والمتأمل في طرق بناء هذه المدرجات يجدها ترتكز على أسس علمية وفنية في منتهى الروعة والإبداع فهي بتصاميمها الهندسية ظلت صامدة في وجه أعتا الظروف وتؤدي أدوارها الزراعية حتى يومنا هذا، أما جانبها الفني فيتمثل بتلك التموجات التي جعلت من الجبال مروجاً خضراء تأسر القلوب وتمتع الناظر، والأروع من كل ذلك أنها زودت بنظم ري وتصريف مائي يشهد للأجداد بنبوغ مستوياتهم العلمية والحضارية، فهناك قنوات ري تتجمع إليها مياه

الأمطار المتدفقة من قمم الجبال فتنساب المياه عبر القنوات إلى المدرجات لري المزروعات خصوصاً أشجار البن مما يسد حاجتها من المياه ويتم تصريف الباقي عبر نظام داخلي بقنوات بنيت في أعماق المدرجات فتنصرف بها المياه دون الإخلال بالمدرجات وبهذا النظام توسعت زراعة البن في جميع وديان ومنخفضات مديريات يافع ولا تزال حتى اليوم.

وتشكل المدرجات في يافع نسبة ٩٠٪ من الأرض المزروعة معتمدة على المطر، وتتميز منطقة يافع بمنحدرات شديدة الوعورة تتراوح نسبتها (٣٥- ٧٥٪)، حيت أقام الإنسان المدرجات على منحدرات الجبال والخوانق الموجودة في تلك الجبال بمدرجات ذات مساحات ضيقة جداً، ويحتوي الفدان الواحد على ٣٠٠مدرج تقريباً، أي إن مساحة المدرج الواحد تبلغ حوالي ١٤م٢ كحد متوسط، وهذه المدرجات تختلف عن باقي المدرجات في المناطق اليمنية الأخرى، فالمدرجات في يافع تشيد بمحاذاة الوديان وصدور الجبال، وتبنى من مادة الحجارة المستخرجة من نفس الطبيعة بطريقة محكمة تحتضن تربة المدرج وتحميه من التداعي بسبب الانحدار الشديد الذي يصل إلى ٧٥٪، وكذالك حمايته من سيول الأمطار الغزيرة.

وتحتاج تلك المدرجات إلى جهود للحفاظ عليها من الإنجراف، وقد استمر الإنسان في منطقة يافع خلال العصور السابقة في المحافظة على هذه المدرجات والاستمرار في تشييدها

وترميمها كلما تعرضت للجرف من مياه الأمطار، وعادة ما تتأثر هذه المدرجات بالأمطار الموسمية بسبب ذلك الانحدار الشديد الذي يؤدي إلى قوة دفع مياه الأمطار.

"إن بناء وتصاميم المدرجات لم تقم لغرض الزراعة فقط بل تقوم بوظيفة هامة وهي المحافظة على المياه، فالمياه من المصادر النادرة للغاية بالنسبة للزراعة في اليمن، واستنادا إلى هذه الحقيقة وحرصا على الاستفادة القصوى من المياه في مثل هذه الظروف الشبه جافة للقشرة الأرضية صممت المدرجات من أجل المحافظة على هذا المصدر النادر وعلى ديمومة العطاء الزراعي المتوازن، كما تقوم المدرجات بمهام أخرى منها تقليل خطر الانجراف لأنها تقلل من الانحدار ومن شدة اندفاع المياه مما ينتج عنه قلة انجراف التربة من المناطق المرتفعة، إضافة إلى أن المياه الجارية إلى أسفل مع ما ترافقه من أتربة مغسولة خصبة من الجزء المنحدر إلى المنبسط لها فوائدها بالنسبة للمحاصيل المزروعة، ومن نتائجها زيادة الإنتاج للمحاصيل، كما أن الغطاء الأخضر هو أحسن إجراء ووقت ضد التعرية كما أن الأنواع المختلفة للمدرجات الزراعية اليمنية لها قدرة على المقاومة، وامتلاكها القدرات الهيدرولوجية[١].

(١) الدكتور سالم عثمان الرماح- كلية الزراعة جامعة صنعاء تدهور التربة والتصحر ورقة العمل من الندوة الوطنية لمكافحة التصحر نوفمبر ١٩٩٦م.

صورة (٢-٥٩) توضح طريقة بناء المدرجات الزراعية
يقوم بها أحد كبار السن من ذوي الخبرة

صورة (٢-٦٠) توضح المدرجات الزراعية

٢- منشآت الري الزراعية:

يعتبر الماء من أهم الموارد الطبيعية، فهو عصب الحياة وأهم عناصرها، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

لقد أقام اليمنيون العديد من منشآت الري الزراعية حرصاً منهم

على استغلال كل قطرة ماء في أراضيهم التي تنعدم فيها المياه الدائمة الجريان كالأنهار، فأقاموا السدود في عرض الأودية لحجز السيول ورفع مياهها لري الأراضي المرتفعة إذ فرضت عليهم بيئتهم الجافة التي لا تسقط فيها الأمطار إلا في مواسم قصيرة في فصل الصيف ضرورة البحث عن مصادر المياه السطحية والجوفية للاستفادة منها في المواسم التي تنعدم فيها الأمطار، فحفروا الآبار لاستخراج المياه الجوفية، ونحتوا الصخور الجبلية لعمل الصهاريج وتجميع مياه الأمطار في مواسم سقوطها والاستفادة منها في المواسم الجافة، وأقاموا المواجل عند ينابيع العيون والغيول في المواسم التي يقل فيها منسوب المياه لتجميعها وإيصالها إلى الأراضي الزراعية البعيدة عن تلك المصادر. كذلك أنشأوا البرك لحصر مياه المنابع السطحية وتجميع مياه الأمطار، وأقاموا السواقي وغيرها من المنشآت الخاصة بتجميع مياه الأمطار وتصريفها لأعمال الري أو لحاجة الإنسان والحيوان من المياه الصالحة للشرب في مواسم الجفاف.

١- الآبار:

عرفت الآبار منذ القدم على أنها المصدر الرئيسي لاستخراج المياه الجوفية من داخل الطبقات، والبئر عبارة عن ثقب اسطواني الشكل يخترق الطبقات الحاملة للماء حيث يتم داخله تجميع المياه ومن ثم جلبها إلى السطح للاستفادة منها، وعرفت الآبار المحفورة يدويا منذ العصور القديمة إذ يتجاوز تاريخها آلاف السنين، ومن الممكن أن تكون قد عُرفت منذ وجود الإنسان على

وجه البسيطة. وتتراوح أعماق الآبار المحفورة بين ١٠أمتار و٣٠ مترا وقد تصل إلى ٦٠ مترا وأكثر، اعتمادا على عمق مستوى سطح الماء في الطبقة غير المحصورة، أما بالنسبة لأقطارها فهي تتراوح بين المتر ين والعشرة أمتار.

وتعتبر المعول والمجرفة والزُّبر والأفرصة هي أدوات العمل المستخدمة في حفر هذه الآبار. ولضمان سلامة البئر ومنع جدرانها من الانهيار فإنها عادة ما تبطن ببطانة دائمة من الأحجار والصخور. والآبار المحفورة يدويا هي عبارة عن فتحه غير منتظمة تمتد من سطح الأرض حتى تصل إلى مستوى سطح الماء في الخزان الجوفي، وعندئذ تمتد عدة أمتار تحت هذا المستوى.

وكان من لديهم الخبرة والإلهام الفطري ما يمكنهم أن يتوقعوا وجود الماء، كانوا غالباً ما يحددونها على ضفة شعب أو وادي على سطح الأرض يقابله مجرى الماء ووجوده في باطن الأرض، وعندما يحدد الخبير المختص والذي يطلق عليه لقب مهندس مكان الحفر يبدؤون بالحفر، وعند حفر المترين الأوليين يقومون بعملية الطيّ والتبطين بالحجارة، ويبنى بطان البئر بسمك نصف متر تقريباً لكي يعتمد عليه التراب الذي في جوانب البئر حتى لا تنهدم البئر أثناء الحفر أو فيما بعد نتيجة الأمطار أو من الماء المتساقط أثناء السني.

وكان الطوي فن بديع وعمل متقن يحفظ البئر من السقوط والانهيار، والحجر المعد لأجل ذالك يكون مقطوع ومنحوت

بطرق يتداخل بعضه ببعض مُشكِّلا نسيجاً حجرياً قوياً ومتحولاً إلى شبه كتلة واحدة لاتنفك عن بعضها، وظهور الماء قد يكون على بعد ١٥ متر تقريباً أو مسافة أعمق تبلغ الأربعين متراً حسب نوع المكان المحفور فيه وتضاريسه، وغالبا ما كانوا يواجهون أثنا الحفر طبقات صخرية ولابد من القيام بكسرها لكي يصلوا للماء، ويكون في ذلك مشقة ولكن تلك الطبقة الصخرية غالبا مايكون تحتها ماء غزير، وبعد الانتهاء من الحفر والطيّ يتم القيام بتشييد ونصب القوائم الحجرية وهي عبارة عن قائمتين متقابلتين متساويتين بالحجم والارتفاع يتم نصبهما على حافة البئر، ويبلغ ارتفاعهما مترين تقريباً وتسمى بكار البئر، والمساحة التي تتوسط العمودين يتم رصفها بالحجارة المربعة رفيعة السمك تسمى صلا.

صورة (٢-٦١) توضح مبنى وقوائم البئر (البكار) من الخارج

صورة (٢-٦٢) توضح مبنى البئر من الداخل

٢- المواجل:

هي عبارة عن خزانات مائية متفاوتة الأحجام يتم حفرها في بطون الجبال، وتعمل لها المساقي والقنوات الكفيلة بتجهيزها بمياه الأمطار و(الغيول) وتوزيعها على جهات الاستهلاك، وتعد المناطق الوسطى، كبلاد يافع والضالع وإب و البيضاء من أغنى مناطق اليمن بالمواجل، وتقسم المواجل إلى نوعين طبقا لتصاميمها الهندسية:

أ- المواجل المغلقة:

يحفر هذا النوع باتجاه أفقي في بطن الجبل، يتوغل فيه إلى مسافات متفاوتة قد تصل أبعاد الكبيرة منها إلى ما بين ٤٠-٥٠ متراً طولاً، و٨٠-١٠٠ متراً عرضاً، أما العمق فغالباً ما يكون بين ٤-٥ أمتار؛ أي أن المواجل الكبيرة تتسع لما يقارب (٢٠-٢٥) ألف متر مكعب من الماء. ونطلق على هذه المواجل صفة (المغلقة) كونها مصممة على نحو غائر في بطن الجبل لا يبدو منها سوى فتحة شقية صغيرة لا تتجاوز في بعضها مترين عرضاً ومتراً ارتفاعاً.

بحسب ظني أن الحضارة اليمنية القديمة تعمدت تضييق مساحة فم الماجل لأسباب مهمة منها:

أولا: للحيلولة دون السماح للحجارة المتساقطة من الجبل، وكذلك الأتربة، والأوساخ من الدخول إلى الماجل وتلويثه.

ثانيا: لتقليل نسبة تبخر المياه من الماجل إذا ما تعرضت

مساحات واسعة منه لأشعة الشمس والرياح، خاصة وأن موسم الأمطار محدود، وهناك حاجة ملحة لتقنين الاستهلاك والحفاظ على الماء لأطول فترة.

ثالثا ً: حرصاً على إبقاء الماء بنكهة عذبة ضمن درجات حرارة الأرض التي تجعل من الماء دافئاً في فصل الشتاء البارد، والعكس في فصل الصيف الدافئ، فضلا عن حماية الماجل من العوامل المناخية وتفاعلاتها. كما هو الحال مع ماجل (الصراري) بمدرية جبن، وماجل المحجبة معقل سلاطين يافع العليا آل بن هرهرة" وماجل (خلاقة) في منطقة الحد وماجل " شعب معسوان في لبعوس آل عمرو وغيرها الكثير في مناطق مختلفة"من بلاد يافع[١].

صورة (٢-٦٣) توضح ماجلًا مغلقًا

(١) نزار العبادي، - ملخص دراسة أكاديمية "تحت الطبع" للصحافي والباحث العبادي ضمن (موسوعة التراث اليمني). نبأ نيوز- الجمعة، ٠٤-يناير-٢٠٠٠م.

ب- المواجل المفتوحة:

وهي خلافا للأولى، يتم حفرها باتجاه عمودي بحيث تتساوى فيها قاعدة الماجل مع فمه الذي يبقى مفتوحا للفضاء طوال العام. ومع أن هذا النوع واسع الانتشار إلا أنه ليس بحجم النوع الأول، إذ أنه يتخذ شكلاً مكعباً أو مستطيلاً تتراوح أبعاد أضلاع أكبرها ما بين (٨×٤) أمتارإلى (١٠ × ٥) أمتار. ومن خلال البحث الميداني يبدو أن هذه المواجل كانت ملحقة بالمنشآت المدنية[١].

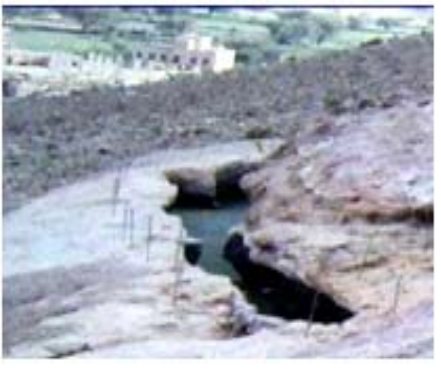

صورة (٢-٦٤) نموذج لماجل مفتوح

صورة (٢-٦٥) نموذج آخر لماجل مفتوح

أسرار المواجل:

مازالت أسرار حفر هذه المواجل موضع حيرة العلماء والمختصين، فالآثار التي ارتسمت على جدرانها تُظهر بوضوح أنها آثار ضربات فؤوس ومعاول، إلا أن ظهور آثار ضربات قوية يمتد طول إحدها إلى ما بين (٢٠-٣٠) سنتمتراً أثارت جدلاً طويلاً حول نوع الآلة التي استخدمت في الحفر بحيث تترك أثراً

(١) نزار العبادي (المواجل) إعجاز يمني لهندسة إروائية فاقت كل الحسابات. مرجع سابق.

كما لو أنها قشطت جداراً طينياً وليس صخرياً!! أما الأمر الأكثر غرابة فهو أن الأهالي الذين جربوا حديثاً إحداث توسيع أو تعديل في جدران الماجل تفاجؤوا بأن أي نحت جديد في جدرانها يفقدها خاصية حفظ المياه، وأن أية مياه تخزن فيها ما تلبث أن تتسرب عبر المسامات خلال أيام أو بضعة أسابيع في أبعد الأحوال، وهو الأمر الذي آثار التساؤل حول سر هذه الظاهرة! وإلى أي مدى كانت الحضارات اليمنية القديمة مُلمَّة بالحسابات الجيولوجية للأرض، بحيث تتوقف عند حدود معينة من الحفر والنحت في الصخور!. إن البحوث التي قامت بها جهات الاختصاص لم تكشف حتى اليوم أن الحضارات اليمنية القديمة التي كانت تستخدم تقنيات حفر ميكانيكية متطورة.. لكن نحت ماجل بالمساحات التي تحدثنا عنها فيما سبق يجعل من المسألة تبدو لغزاً محيراً في كيفية تمكن الإنسان اليمني من قهر الطبيعة الجبلية الصمّاء وحفر تلك الخزانات العظيمةّ، كذلك في الوقت الذي يمكن أن يستغرقه حفر ماجل واحد! وفي حجم القوة البشرية العاملة التي أنيطت بها المهمة الشاقة! فالأعداد الهائلة من المواجل تؤكد أن مسألة حفرها لم تكن مهمة معقدة وشاقة كما هو حال حضارتنا اليوم التي تضطر لاستخدام البارود لتفتيت الصخور بجانب تقنيات علمية متطورة للغاية.

وفي الموروث الشعبي اليمني يعتقد بعض الأهالي أن الحضارات اليمنية القديمة كانت على معرفة بحسابات فلكية دقيقة جداً، بحيث تباشر أعمال الحفر في أيام محددة تكون الأرض فيها

أقل صلابة مما هي عليه بقية أيام السنة.. لكن هذه الفرضية لا تبدو مقنعة. وفريق آخر من الأهالي يعتقد أن الحضارات القديمة ربما كانت توصلت إلى اختراع مادة كيماوية معينة تساعد على تفتيت الصخور إذا ما تم رشها عليها جراء تفاعلات حمضية كتلك التي تحدثها الأمطار في الكهوف وبعض المناطق. وهو تفكير فيه الكثير من المنطق - من وجهة نظري- رغم أن البحوث اليمنية تجاهلت البحث فيه. فيما يذهب فريق صغير إلى ربط المسألة بالجان.. ويسند رأيه إلى القصص القرآنية، وما روي عن نبي الله سليمان "عليه السلام"، وكيف سخر الله له الجان ليعملوا بأمره، فيبنون ويحفرون ويزرعون ويؤدون مختلف الأعمال التي يؤمرون بها.. وتلك مسألة يتحاشى خبراء الآثار الخوض فيها، أو حتى الإيمان بوجودها ما دامت لا تدخل في مناطيق التحليل العلمي المادي.. مع أننا نؤمن بها، ولكن نعتقد أنها كانت معجزة النبي سليمان "عليه السلام" التي يختص بها الله أنبياءه دون سواهم. إذن فإننا رغم دخولنا القرن الحادي والعشرين، وبلوغنا رقياً علمياً رفيعاً جداً نقف عاجزين عن تحليل ظاهرة مادية من صنع إنساني في عصر لم يكن يعلم فيه أن الأرض كرويةِ[١].

مواجل اليمن في أسبانيا:

في عام **١٩٩٧**م وصل إلى اليمن فريق خبراء آثار من إحدى الجامعات الأسبانية في "برشلونة"، حاملين معهم صوراً وأفلاماً

(١) (المواجل) إعجاز يمني لهندسة إروائية فاقت كل الحسابات. مرجع سابق.

لمواجل في أسبانيا، وكنت محظوظاً بالانضمام إليهم في مناقشة مشاريع الري القديمة في اليمن، وعلاقتها بما هو كائن في أسبانيا، وكنت يومها منهمكاً في دراسة مماثلة حول ما يخص اليمن.

بعد الإطلاع على الصور والأفلام والاستماع إلى الدراسات الموضوعة بشأنها، اخترت أن انقلهم إلى مديرية "جبن" بالضالع لأريهم النسخة الأم لما يتحدثون عنه.. فكانت خلاصة أيام البحث والنقاش أن تأكد الأسبان أن الإنسان اليمني الذي عمل كل هذه المواجل في اليمن هو نفسه الذي عمل ما هو كائن في أسبانيا، وكان ذلك خلال الفتوحات الإسلامية التي تروي كتب السيرة أن الحملة ضمت أعداداً كبيرة من أبناء المناطق اليمنية الوسطى، ويخص بالذكر يافع، عندما استقروا فيها، وباشروا إعمارها وإقامة المشاريع بما في ذلك مشاريع الري.

فالفحص الجيولوجي والأثري أثبت أن المواجل في اليمن سبقت ما لدى أسبانيا بأكثر من ثلاثة قرون، مما يعني أن المواجل في اليمن تمثل واحدة من فنون الهندسة الإروائية لعصر الحميريين الذين ما لبثوا أن شهدوا الإسلام، وحملوا بيارقه إلى مشارق الأرض ومغاربها، فطبقاً للروايات التاريخية فإن قبائل اليمن اندفعت في صفوف الجيش الإسلامي المجهز لفتح بلدان أوروبا، وأن عمرو بن العاص رضي الله عنه حاكم مصر آنذاك أمر قواته بضرب طوق على ضفة النيل بالقرب من منطقة "الجيزة" للحيلولة دون عبور قوات القبائل اليمنية للضفة الأخرى. لكن اليمنيين عندما

وصلوا إلى هناك، وأخبروهم أن ابن العاص أمر بضرب سور حول المنطقة، ردوا على المتحدث قائلين: "دعونا نمر فإن صدورنا أسوارنا". وهكذا عبر اليمنيون النيل، وسميت المنطقة من يومها بـ"الجيزة " لأنهم اجتازوا منها نهر النيل.. وواصلوا زحفهم ضمن قوات إسلامية أخرى إلى أوروبا. وهو الأمر الذي يفسر لنا كيف أن مناطق عديدة في أسبانيا تحمل حتى يومنا هذا أسماء يمنية، مثل "جبل حاشد"، "وادي الذراحن"، "جبل ذمار"، "جبل يافع"، منطقة "سبأ"، وغيرها من الأسماء التي نعجز عن حصرها.

لاشك أننا لم نكن أمام حضارة إنسانية عادية، انطوى ذكرها على هامش التاريخ، بل كانت هناك إرادة يمنية حقيقية، وحكمة عظيمة تحدت أقدارها، وقهرت الطبيعة القاسية، وكتبت معجزاتها الحضارية التي مازلنا نتساءل مع أنفسنا: كيف بلغ اليمنيون كل ذلك المجد التاريخي؟! وكيف صنعوا الحضارة من محض أحلام وأماني..؟![1]

الحواجز المائية:

أما عن استغلال مياه الأمطار وبنائهم للسدود والحواجز المائية واستخراجهم الغيول من العيون المكظومة تحت الأرض فإن ذلك لايحتاج إلى طول عناء في البحث والتقصي، ويكفينا

(١) نزار العبادي (المواجل) إعجاز يمني لهندسة إروائية فاقت كل الحسابات. مرجع سابق.

الشواهد المرموقة في كل المناطق الجبلية وفي الأودية والسهول، فسد مـأرب وغيره من السدود التي مازالت آثارها ما ثلة إلى اليوم خير شاهد على مابذله اليمانيون من جهد جماعي لبناء تلك السدود، كما يحدثنا التاريخ عن تنظيم الاستفادة من مياه الغيول.

صورة (٢-٦٦) توضح أحد الحواجز المانية (السدود) (سد طسة) بذي ناخب

برك الماء:

تنتشر على خطوط السير وتحديداً فوق كل نقيل أو عقبة، وتسمى البركة سَقَّاية حيث يُسقى منها الإنسان والحيوان، وهي عبارة عن حفرة اسطوانية الشكل ويتم بناؤها وطيّها بالحجارة ومن ثم تلبيس جدرانها بمادة القضاض (النورة) والكري ومادة الرماد، ويتراوح قطرها ثلاثة أمتار تقريباً وعمقها كذلك.

صورة (٢-٦٧) توضح بركة ماء (سقاية) أو كرفانات

خزانات المياه المنزلية:

يمتاز البناء اليافعي بالطابع الأصيل في المتانة والإبداع والتنوع ومن ذلك الجسور المعلقة والعقود التي تبنى من الأحجار على شكل أقواس دائرية لتحمل الأحمال الثقيلة مثل سقوف المساجد، وأخيرا تم استخدام تلك العقود لخزانات الماء الخاصة للبيوت والتي استحدثت من ١٩٧٠م تقريبا. حيث أصبحت تلحق في الكثير من البيوت، وهذه الخزانات هي عبارة عن حفر (المناقيش) وهي المحاجر الصغيرة التي تم استخراج الحجار منها وتقع عادة بالقرب وبجانب البيوت، نحتت بالصخر فتجد أرضياتها عبارة عن صخرة وجوانبها الثلاثة مكونه من الصخور ويتم بناء الوجهة الترابية بالصخور والحجار وتلبيسها بالاسمنت وصب أرضياتها بالخرسانة المسلحة في حالة أن تكون أرضياتها رخوة والجسور أو العقود الحجرية تكون عوضاً عن السقوف الخشبية

التي تتأثر من الماء واعتمدوا على الجسور الحجرية. و(السحابيل) صفائح صخرية كبيرة طولها ١-٢ متر بعرض ٣٠سم، وسمكها لا يزيد عن ٨سم وتوضع فوق العقود، وهي تحل محل البلاطة المسلحة في المباني الحديثة ثم يتم فرش خرسانة عادية مكونة من الحصى والنورة

ويتم تزويد هذه الخزانات بمياه الأمطار اثناء هطولها في المواسم، من خلال تصريف وتوجيه سقوف البيت والديوان وجميع السقوف الملحقة في البيت من خلال مد مواسير من السقوف إلى الخزان. وتتفاوت أحجام هذه الخزانات، ويقدر حجم البعض منها بين ثلاثة أمتار ارتفاعاً وطول ستة أمتار وعرض ثلاثة أمتار تقريبا.

صورة (٢-٦٨) توضح عقود سقف خزان الماء المنزلي

قنوات الري شبكات التغذية والتوزيع:

نظمت الحضارة الإنسانية القديمة للمواجل شبكات هندسية دقيقة تكفل تغذيتها بالمياه. فقد تم نحت مساقي طبقاً لانحدارات سطح الجبل الذي ستهطل عليه الأمطار بحيث تضمن هذه المساقي انصباب المياه فيها، وإيصالها إلى فم الماجل، حتى وإن كان ذلك عبر مسالك متعرجة وطويلة يسلكها المسقى. وقد يكون المسقى الواحد موجهاً لتغذية أكثر من ماجل في آن واحد من خلال تشعب قنوات فرعية عنه. فيما نجد أحيانا كثيرة أن شبكة التغذية مصممة على أساس أولويات معينة، بحيث تصب في ماجل بعينه، حتى إذا امتلأ وفاض انسابت مياهه في مسقى جديد يقود إلى ماجل آخر، يتكرر معه المشهد ذاته، إذ أنه بعد الامتلاء يفيض لينساب في مسقى ثالث، وربما رابع أيضاً بحسب خارطة انتشار المواجل على الجبل الواحد، وجميع المساقي منحوتة بدقة متناهية في الجبل.

وقد حرصت تلك الحضارات على نحت حفرة لا يزيد عمقها على المتر قبل الماجل بمسافة مترين أو ثلاثة يطلق عليها الأهالي اسم (المَنَشَّة) أو (المصْفى)، تكون مهمتها ترسيب الحجارة الصغيرة والرمال والعوالق الأخرى قبل بلوغ الماء، لضمان أكبر نسبة ممكنة من النقاء. ومثلما تم نحت مساقي التغذية، بدت هناك أيضا مساق صغيرة وضيقة منحوتة باتجاه أسفل الماجل تقود المياه إلى مواضع استهلاكها، لكن الواضح أن هذه المساقي كانت مخصصة للملوك والأعيان وليس لعامة الناس الذين يفترض منهم نقل الماء بأوعية مما كان يستخدم آنذاك، وتشير خارطة سير تلك

المساقي إلى أنها كانت تخترق القصور من جهة وتخرج من جهة أخرى بحيث يتم الانتفاع من المياه المستخدمة في أعمال التنظيف والغسل ثانية بتوجيهها نحو الحقول الزراعية في الوادي أسفل الجبل، والتي يعتقد أنها تعود أيضا لأصحاب نفس البيوت[١].

الأوصار:

تبنى بشكل دائري وترصف أرضيتها بأحجار ملساء مربعة الشكل شبيهة بالبلاط تسمى (صلا) ويجمع إلى هذه الأوصار المحاصيل الزراعية من الحبوب قبل تقنيتها من الشوائب، وتبنى بداخلها غرف لخزن الأعلاف وتحفر في أرضياتها مدافن الحبوب وتسمى الغرفة الواحدة منها بـ (المنزلة أو المرواة)[٢] وفوق بوابة الوصر أو بجانبه تبنى "محرسة" وهي نوبة صغيرة تتكون من طابق إلى طابقين، لحراسة المحصول.

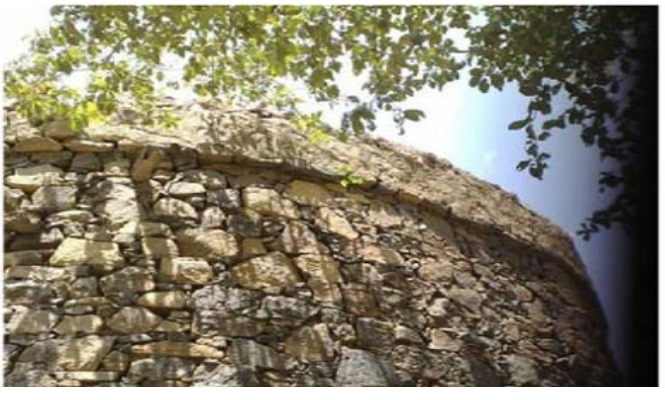

صورة (٢-٦٩) توضح مبنى (الوصر) الدائري

(١) نزار العبادي (المواجل) إعجاز يمني لهندسة إروائية فاقت كل الحسابات. مرجع سابق.

(٢) انظر الوثيقة رقم (١٠) في ملحق الوثائق.

صورة (٢-٧٠) توضح أرضية الوصر لكنها غير مستوية بسبب عوامل التعرية

صورة (٢-٧١) توضح أرضية الوصر لا تزال مستوية وفي حالة جيدة

(٢) مدافن خزن الحبوب:

هناك مثل متداول في يافع يقول: " لليافعي مرة وبقرة ومدفن ذرة" ، ووفقاً لهذا المثل الشعبي فان البيت السعيد قوامه هذا المثلث المتمثل بالمرأة الصالحة المدبرة لشؤون الأسرة، والبقرة الحلوب التي تعطي اللبن والسمن، ومدفن مليء بحبوب الذرة البيضاء.

واشتهرت يافع بحفر مدافن الحبوب المنتشرة في عموم المنطقة لخزن وحفظ الحبوب لعدة أعوام دون أن تتعرض للتلف

أو العطب، وبهذه الطريقة تمكنوا من أن يدّخروا قديماً أهم الغلال المتمثلة بحبوب الذرة التي تعتبر المحصول الزراعي الرئيسي للسكان في يافع عموماً وقد فرضت عليهم ذلك الحروب، ومثل هذه المدافن تنتشر في كثير من مناطق اليمن، وحفر المدافن يتم يدوياً بواسطة الزُّبر والمطارق والأزاميل أو الفراص وجمعه أفرصه، وفتحاتها إما بشكل اسطواني دائري أو بشكل المربع، وتفرض ذلك نوعية الصخور التي يتم حفر المدافن فيها.

ولا تتسع فتحة المدفن إلا لدخول شخص واحد ولكنها من الداخل تتسع لأ كثر من شخص، ويتم بناء فتحة المدفن بإحكام شديد بعد الانتهاء من حفر المدفن بحيث لا يسمح لتسرب المياه أو الرطوبة إلى المدفن، وتغطى بحجر على مقاس الفتحة وتردم بالطين.

صورة (٢-٧٢) توضح مدافن خزن الحبوب

(٣) الرحى:

أداه حجرية تستخدم لطحن الحبوب وتسمى مطحناً، وكانت تخصص لها غرفة صغيرة في الدور الأرضي يسمى بيت المطحن، وتتكون المطحن من قطعتين من الحجار اسطوانية الشكل يتم قطعهما من الحجر الجيري، إحداهما سميكة الحجم وتوضع كقاعدة ويتم تثبيتها في أرضية بيت المطحن بارتفاع خمسة عشر سم عن سطح الأرض، ويتوسطها عود من الخشب يتم تثبيته بمهارة فائقة بعد أن يحفر له مكان، والقطعة الحجرية الأخرى تكون أيضا اسطوانية ولها حجم وقطر القاعدة وتتوسطها فتحه دائرية الشكل تسمح للعود الخشبي المثبت بالقاعدة بالدخول مع زيادة في الفتحة بحيث تتسع لنزول الحبوب أثناء الطحن، وتُطبق الحجرتان فوق بعضهما وتحرك الاسطوانة العليا بيد جانبيه من الخشب تم تثبيتها بأحد جوانبها أيضا وتكون حركتها دائرية ومحورها يكون العمود الخشبي المثبت على القاعدة يسمى "دروان"، وأثناء الدوران يوضع الحب المراد طحنه من خلال الفتحة الدائرية التي وسط الاسطوانة العليا بحيث يتسرب الحب بين الاسطوانتين الحجريتين وينطحن أثناء ذالك و تكون أسطح الاسطوانات متساوية وخشنه خاصة الجهتين المتطابقتين لكي يكون الطحين ناعماً.

(٤) الطُّرُق:

لقد برع أهالي يافع في رصف الطرق القديمة بالحجارة والتي تربط القرى والمدن الكبيرة والأسواق.

صورة (٢-٧٣) توضح طريق نقيل لعنوق (العياسي)

كما كانوا يبنون السقيئف جمع سقيفة وهي مأوي يسكن إليها الإنسان والأنعام والدواب عند هطول الأمطار، وتكون استراحة للمسافرين، وتبنى فوق كل نقيل وعلى جوانب الطرق، وعلى مسافات متقاربة في المناطق الجبلية الزراعية، ومتباعدة نسبياً في المناطق التي تقل فيها الأمطار والسكان، كما نجد أن في كل كيلو متر واحد يبنى السُّبْول وهو مشرب يشرب منه المسافرون.

وبناء السُبول على الطرق ليؤكد - بعد هذا العرض - على أن اليمانيين كانوا يحكّمون عقولهم فيما يبنون بما يتناسب وطبيعة المناخ والتكاثر السكاني وطبيعة النشاط التجاري والزراعي والعسكري على تلك الطرق.

صورة (٢-٧٤) توضح غرف (السقيف) الاستراحات أو (منزلة) أو (ديمة) أو (سفل) كما يطلق عليها في يافع

○ المطلب الثالث ○

المنشآت العلمية والخدمية

(١) المدارس:

أول مدرسة تم تشييدها في يافع كانت مدرسة الإصلاح في لبعوس تم بناؤها بالحجارة بمبادرة جماهيرية قام بها المواطنون بناءً على دعوة من الهيئة الإدارية لجبهة الإصلاح اليافعية التي سميت المدرسة باسمها، حيث دُشنت المبادرات الجماهيرية لبناء المدرسة في **٢٢**ديسمبر**١٩٦٣**م، وعلى مدى شهرين بنيت أساساتها وأحد الفصول، وبدأت الدراسة في الفصل الذي تم تجهيزه مع تواصل بناء بقية فصول المدرسة، حتى تم استكمال خمسة فصول دراسية، وكان اختيار موقع بناء المدرسة في مرتفع جبلي في قرية أهل خالد، منطقة آل أحمد لبعوس لاعتبارات كثيرة، منها إن الموقع يتوسط مجموعة من القرى المؤيدة لجبهة الإصلاح، والأهم من ذلك أنها أقيمت بموقع نوبة (المعيان) التي كانت أحد المواقع العسكرية أثناء الحرب الدائرة بين أهل أحمد وأهل الديوان حيث تم التناوب في هذه النوبة ما يربوا على **٣٢**عاماً متواصلة إلى أن تم نسفها وحلت في موقعها المدرسة التي تحولت في العام **١٩٦٧**م إلى مقر للقيادة المحلية للجبهة القومية. وبني تحت هذا المبنى أو بالقرب منة سجن عبارة عن غرفة صغيرة لا تتعدى **٣**×**٤** متر تم بناؤها من الحجر ضمت جدرانها جميع مشايخ يافع بعد اعتقالهم، ثم تحول مبنى المدرسة إلى مستشفى ومن ثم

مدرسة إعدادية وبعدها سكن طلابي، وأخيراً دار ضيافة وما زال حتى اليوم.

بعدها انتشر بناء المدارس في عموم يافع ومعظمها شُيِّدت بالحجارة. وكانت يافع قبل العام **١٩٦٣**م شأنها شأن بقية مناطق اليمن تفتقر للمدارس الحديثة إلا من وجود المعلامة "الكُتَّاب" التي كانت تقتصر على تحفيظ القران وتعليم مبادئ القراءة والكتابة وخاصة يافع الجبل،أما يافع الساحل فكانت توجد بعض المدارس.

صورة (٢-٧٥) عام ١٩٦٣م توضح بناء الدور الأول لأول مدرسة فى يافع لبعوس وهى مدرسة الإصلاح

صورة (٢-٧٦) عام ١٩٦٣م توضح اكتمال بناء الدور الأول لمدرسة الإصلاح ولم يتبق إلا السقف

صورة (٢-٧٧) قديمة توضح مبنى مدرسة الإصلاح بطوابقها الثلاثة

(٢) المستشفيات :

يعد مستشفى السلام أول مستشفى في يافع تم بناؤه في العام ١٩٧١م، ويقع في سوق السلام مديرية يافع لبعوس، تم تشييده على مساحة تقدر بـ(٥٠×٥٠) متر مربع، والمبنى أخذ الشكل المربع ويتكون من دور واحد تتوسطه مساحة مفتوحة للتهوية والخدمات، السعة السريرية تقدر بـ(٣٠) سريراً تضمها عنبران، عنبر للنساء وعنبر للرجال، وقسم خاص للعمليات مكون من غرفتين، وقسم خاص للنساء والولادة، ويتكون من غرفتين، وقسم للعيادات الخارجية واستقبال المرضى يتكون من غرفتين، وهناك خمس غرف: غرفة للمختبر، وغرفة صيدلية، وغرفة للأشعة، وغرفة خاصة بالإدارة، وغرفة مستودع، إضافة إلى ثمانية حمامات: ٤خاصة بالنساء و٤خاصة بالرجال، وللمستشفى بوابتان تفتح البوابة الشمالية للموظفين والمراجعين، والبوابة الغربية تفتح

للسيارات،والمبنى عبارة عن كتلة من الحجر تم بناؤه بنفس الطريقة التي يتم فيها بناء البيوت ومن الحجر، وهناك ملحق بالمستشفى من الخلف مبنى للمطبخ، وتلحق المستشفى ثلاثة بيوت صغيرة كسكن للأطباء، وجميعها تتكون من طابق واحد فقط، وكل بيت يتكون من ثلاث غرف ومطبخ وحمام وبنيت بالحجارة، وتقع بالقرب من المستشفى من الجانب الغربي، بجانب السور ملعب الكرة من الاتجاه الشمالي[١].

صورة (٢-٧٨) توضح الواجهة الأمامية لسور مستشفى السلام لبعوس من الخارج سوربلوك

(١) محمد سالم عبد الرحمن بن زياد_ مؤسس ومدير عام المستشفى.

صورة (٢-٧٩) توضح جانبًا من مبنى مستشفى السلام من الخارج مبنى حجر

صورة (٢-٨٠) توضح جانبًا من مبنى مستشفى السلام من الداخل

صورة (٢-٨١) توضح جانبًا آخر من مبنى مستشفى السلام من الداخل